عثمان جحى

Telegram:@mbooks90

العربجي

أبواب الموت والحياة

رواية

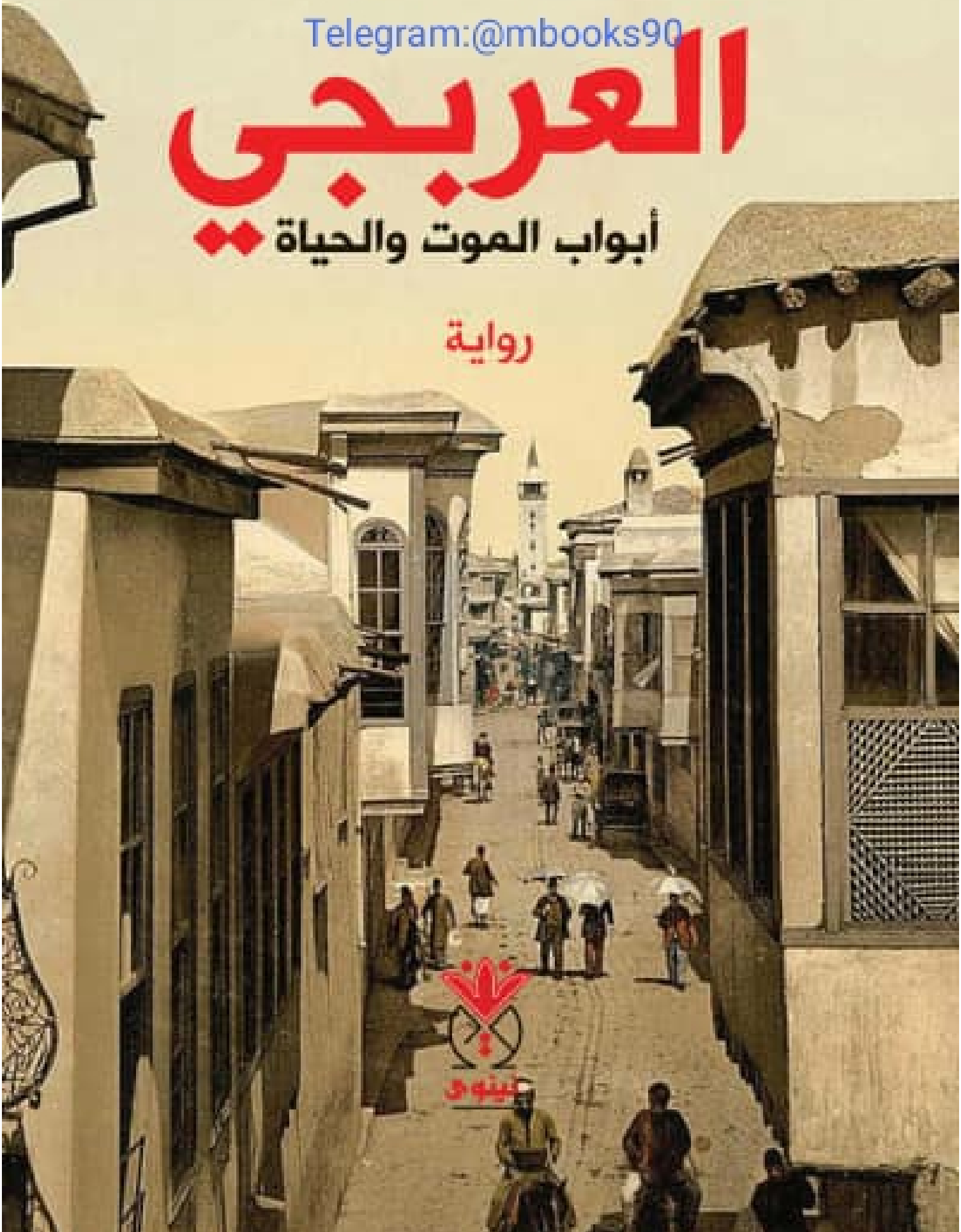

عنوان الكتـــاب: العَرَبَجي (أبواب الموت والحياة)

اســم المؤلــف: عثمان جحى

الموضــــوع: روايـــة

التدقيق اللغوي: د. نسرين عبيد

عدد الصفحات: 160 ص

القيـــــاس: 14.5 × 21.5 سم

الطبعـة الأولى: 500 /كانون الثاني 2024 م - 1445 هـ

ISBN: 978-9933-38-540-8

رقم الإصدار	روايـة
1334	308

© جميع الحقوق محفوظة لدار نينوى

Copyright ninawa

دار نينوى
للدراسات والنشر والتوزيع

سورية . دمشق . ص ب 4650

تلفاكس: 2314511 11 963+

هاتــف: 2326985 11 963+

الإمارات العربية المتحدة - الشارقة

- المنطقة الحرة - مدينة الإعلام للنشر

هاتــف: 506844076 971+

E-mail: info@ninawa.org
ninawa@scs-net.org

web: www.ninawa.org

دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع

@House Ninawa

Ninawa house

ninawa_publishing_house

العمليات الفنية:

التنضيد والتدقيق والتحرير والتحقيق والإخراج والطباعة - القسم الفني:
دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع

لا يجوز نقل أو اقتباس، أو ترجمة، أي جزء من هذا الكتاب،
بأي وسيلة كانت من دون إذن خطي مسبق من الناشر.

إن الآراء الواردة في الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر

المثنى:

طرقاتنا - أغاني عبد الحليم - قصة الحب الأولى - الصفير - البلور المكسور.. أصوات من راحوا.. جوبر الساكنة فينا.. الأبواب التي عبرناها.. أبواب الحياة والموت.. وما بينهما

إليك.. أنت في كل التفاصيل..

حلا - جنى - مريم:

الحق والخير والجمال.. أبواب للحياة.. معاً اعبروها بسلام وثبات.. معرفةً وعلماً و فرحاً

- جويل:

كوني فراشة.. وردة.. كوني أنت

جاد نايف الأحمر:

قد لا نعرف ما يخبئه الماضي.. لكن بالتأكيد بيدك باب المستقبل.. افتحه بسلام وأمان.. بانتظارك

أولاً - الأصل

بعد أن طلب مني (عبدو العربجي) أو (السلطان عبدو) - كما صار يُحب أن ندعوه- أن أكتب تاريخ دولته الجديدة، وأحسبه كان يعني تاريخه الشخصي، فهو -الحاكم- الملمح الوحيد لتلك الدولة التي أقامها في العراء على أنقاض ما هدمه الطاعون من حيوات البشر.

أمرني ألا أتكتم على شيء من التفاصيل، مهما كانت جارحة، له أو لمن مروا في حياته، وهذا ما حدا بي لأن أتقصّى تفاصيل محطات حياة الحاكم، أمسك القلم، آلة العودة بالزمن إلى ما كان، أو ما لم يكن يوماً، وأرسم...

النقطة الأولى

التي بدأ عندها كل شيء، عندما نظر عبدو إلى عيني (عفيف النشواتي)، وقرر أن يكون أكثر من (لا شيء) بقليل، قرر أن يكون... ظلاً!

(باب البداية)

الجميع يذكر تلك اللحظة كما لو أنها حدثت أمس.

عندما أقبل عبدو مع عربته إلى الساحة الواقعة خارج مخازن (كامل آغا الجوخدار)، كان يسير قرب البغل، بدل الركوب على ظهره، متثاقلاً في خطواته، التي يتداخل صوتها مع صوت حوافر بغله في إيقاع رتيب منتظم، كأنهما وحدة عضوية متناغمة.

كان رجلاً طويلاً، صلبًا وقويًا، بشرته لامعة وشديدة السمرة، خصلات شعره تلتف حول نفسها كجدائل الغجر، وتنحدر فوق ياقة معطفه الترابي الذي ورثه عن المرحوم (أبي شهاب)، وهو عربجي عاش عبدو معه، وتربى في كنفه حتى وافته المنية، لم يرث عبدو معطف أبي شهاب فحسب، بل ورث عنه أيضا قسوة قلبه، وزجاجة إيطالية محاطة بجلد البقر، مملوءة بالخمر على الدوام يدسها عبدو بين ثنايا المعطف، قرب القلب تماماً، حتى تنتقل نبضاته إلى السائل داخل الزجاجة فلا يرسب ويفقد تركيزه، أما المقامرة وحب الرهان فهي شرور لا بد منها، تبناها عبدو بعد تردده على الخمارات. وأول رهان فاز به كان ساعة قضاها مع غانية لأول مرة في حياته في (خان قليط)، تلك الليلة التي فقد فيها عذريته، وأي أمل له بحياة مستقيمة، عندما كان في الرابعة عشر من عمره.

يداه خشنتان تعلوهما ندوب كثيرة.

كلما اقترب عبدو من الساحة، كانت الأحاديث بين (العربجية) الآخرين تخفت شيئًا فشيئاً، حتى توقفت تماماً عندما وصل مع عربته إلى منتصف الساحة وركنها إلى جانب بقية العربات الأخرى، وأسند جسده إلى (مشرب) ماء بُني إحياءًا لذكر (كامل آغا الجوخدار)، ثم أخرج صندوقاً فضياً فقد لمعانه منذ وقت طويل، ورفع رأسه ينظر حوله، فتهرب الرجال بنظراتهم وعادوا إلى أحاديثهم، في حين أنه تناول قطعة معجونة من الحشيش بحجم دماغ عصفور دوري،

ودسها بين باطن شفته العليا ولثته، وراح يستمتع بالرائحة الواخزة، ويحس بأنه أفضل حالاً بكثير، وهو ينقل نظره بين الرجال، دون أن يركز اهتمامه على أحد بعينه.

وربما بسبب ارتباك الحاضرين في الساحة في حضرة العربجي، لم يلحظ أيٌ منهم الصبي الصغير وهو يتدرج نازلاً الدرجات المؤدية إلى الساحة، وعيناه الصغيرتان الملونتان بلون سماء الصيف مركزتان على أحد البغال الواقف قريباً بلونه الأبيض، وهو يحمل حفنة شعير.

وما حدث بعد ذلك ربما يكون ضرباً من ضروب الحظ، أو أنه إلهام إلهي نزل على عبدو بعد تعاطيه شراب الآلهة، ألا وهو الحشيش، لكن خيل إليه أن الصبي الصغير ذا الشعر الذهبي مدهوش تحت حوافر الدواب المضطربة، والطير تأكل من الشعير الذي انتشر حوله، مختلطاً بالدماء النبيلة ذات اللون الأزرق.

فاستل عبدو (شنكل العتالة) المعلق في النطاق المحيط بخصره، واندفع باتجاه الصغير المُسرع إلى حتفه، أبعد الرجال والدواب عن طريقه بذراع شنكله التي كان يتحكم بها ببراعة، ووثب على الأرض بخفة كواحد من تلك الطيور المحلقة فوقهم.

تنبه البغل الأبيض لهجوم الصبي الصغير، وقبضته المرفوعة المهددة، وأخذ يحرن إلى الخلف، بينما خرج والد الصبي (عفيف النشواتي) يتحرى اختفاء أصغر أبنائه.

اضطرب البغل بشدة وأخذ يضرب الأرض بفوضى، فتجمد الصبي مرعوباً، بينما حرك عبدو الشنكل الحاد ببراعة وخطف الصبي من ياقة قمبازه وسحبه نحوه بقوة، شهق الصبي لظنه أنه سيختنق وأخذ يبكي، في حين ضمه العربجي تحت ذراعه.

التقت نظرات عبدو الملقب بأبي لطفي مع نظرات عفيف الملقب بأبي نوري في

لحظة غيرت حياة الرجلين.

لم يلق الحاضرون الآخرون بالاً لما حدث، فالمعثرون لا تعنيهم هذه البطولات، وعندما يموت لهم ولد، يتخففون من عبء إطعامه، وقد يغرسون غيره في أرحام زوجاتهم، الحياة تقسو عليهم حتى تحيل الواحد منهم حجراً متحركاً.

﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ، وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ، وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾

لطالما دعوتُ الله أن أكون حجراً يهبط من خشيته

أما صديق العمر، عبدو، فقد ساد قوماً قست قلوبهم، وزادته قسوة، فهو أشد قسوة من الحجارة.

تلك اللحظة كانت اللقاء الأول المباشر بين الرجلين، بعد قطيعة نشأت بينهما، عقب زواج عفيف من بدرية خانوم، حركتهما غريزة الأبوة، والتي نادرًا ما شعر عبدو بها، فالتقيا على أمر قد قدر.

رأى عفيف في عبدو شيئاً يميزه من عشرات الرجال المنتشرين في الساحة، رغبة مُلحة في اعتلاء صهوة الحياة، هذه الحياة التي تبدو دائمًا كدابة برية متوحشة وجامحة، تحمل من يفلح في اعتلائها إلى جحيم يخيل للناظر أنه جنة، لم يفلح أحدٌ -حتى الأنبياء- في ترويضها.

مد عفيف يدًا بدا كأنه يدهنها غبًا، ذات أظافر مقلمة نظيفة نحو يد عبدو الممسكة بالشنكل ليصافحه شاكراً، وقد عانق ابنه بذراعه الثانية..

«مدين لك أيها العربجي، حياة ابني حسن، وفرحة قلب أمه، وهناء بيتنا»

التوت شفة عبدو تحت شاربه الكث، كان يحب أن يدين له الآخرون، بل ذلك كان أحد ملذات الحياة الأغلى إليه، ربما كانت متعة متصلة بحبه المقامرة، فأن يدين له الآخرون، وأن يمتلك رقابهم في قبضته، ذلك الشعور الأغلى على قلب

الرجال. وعبدو يعرف كثيرًا من الطرق لاسترداد ديونه، الطرق الناعمة، والأكثر خشونة على حد سواء.

صافح عبدو يد الرجل وقلبها لتصبح يده هي العليا، وشهد حسن اتفاقهما الضمني.

بالطبع فإن عفيف النشواتي، سمع كثيرًا عن أخبار عبدو ومغامراته ومقامراته، لكن قانون الرجال واضح، فالواحد منهم حر يفعل ما يشاء، وكيفما شاء، وذلك لا يعيب الواحد فيهم.

بل إن قلة الأمانة، وهوان الشرف، هما العيبان الوحيدان للرجال. وعبدو -مع كل عيوبه، ونقائصه- رجل يمكن استئمانه. يحمي البضائع التي ينقلها فوق عربته بحياته، ولا شيء أغلى من الحياة.

جلس الرجلان على حافة البحيرة المبنية في طرف الساحة، تلك التي يسقي الرجال منها دوابهم وقطعانهم، ثمة رياح جنوبية هبت، تحمل معها الرذاذ عن سطح الماء، والجو يعبق برائحة روث الحيوانات وعرق الرجال.

سأل عفيف: -إلى متى؟ (بدا سؤاله ساخراً يخفي فضوله العارم تجاه الرجل الذي يبدو كأنه خارج من أساطير ألف ليلة)

- إلى متى؟ ماذا؟ (ردد عبدو)

- ستستمر في مضغ معجونة الحشيش ومعاقرة الكحول؟ تعال معي أيها العربجي، انضم إلينا، لتحيطك عناية كامل آغا ورعايته، ونمنحك حاجة الإنسان الأغلى على قلبه... شعوره بالانتماء إلى جماعة ما...

في ظروف أخرى، وأوقاتٍ مختلفة، ربما كان عبدو سيقلب عرض عفيف في عقله وقتًا طويلًا، ربما كان سيفكر في تبعات خطوة كهذه، لو لا أن وجد العرض رغبة جامحة نمت في معدة عبدو صبيحة ذلك اليوم بالذات.

عندما نظر ابنه لطفي في عينيه وهو يرتعد خوفاً منه، ويسيل تحته خيط من البول خرج من جسد الصبي بصورة لا إرادية، وهمست له زوجته فوزية: إنه يشعر بالرعب من غضبك...

تذكر عبدو خوفه الكبير من (أبي شهاب) ذلك الرجل العاقر الذي أحب الأطفال لدرجة الكره الشديد الممزوج بالمقت!

رأى عبدو نفسه في بؤبؤ عيني ابنه، وحش عصابي، سكير وقاس، عاجز عن الثقة بالآخرين، ويسبب الكوابيس الليلية للأولاد، ما يدفعهم للتبول على أنفسهم والاختباء في أحضان أمهاتهم خوفاً من شنكله الذي قد يقتص حياتهم كأنه حاصد الأرواح، ونمت في معدة الأب رغبة بالتوبة عن القسوة، كرامة لعيني ابنه الذي كان هو نفسه سبب وسبيل مجيئه إلى هذه الحياة القاسية، بلا إرادة من ذلك الولد الذي (تكرفت) من رحم أمه، كتلة لحم حمراء ساخنة،

هل سيبتليه بالحياة وقساوتها؟ ثم يكون وحشاً مخيفاً يزيد وطأة أيامها على قلب ابنه؟ أي ظلم هذا؟

وأراد عبدو، لأول مرة في حياته أن يكون... أباً...

شهدت عينا حسن الصغيرتان يد العربجي تصافح يد والده، وبدأ بين الرجلين عهدٌ... لن ينهيه إلا الموت!

«لم أختر هذه النقطة عبثاً، فكما قال المعلم الأكبر: لا شيء يُخلق عبثاً، حتى حبة الخردل في الصخرة الصماء، تنادي قطرات المطر لتشق قساوة الصخر من حولها، وتنبثق من الظلمة التي حسبتها أبدية.»

«هذه اللحظة التي (أخبرني) فيها عبدو قراره بالعمل مع (أبو نوري النشواتي)، بدل أن يطلب رأيي ومشورتي، فأخبره بأن يصلي ركعتين، يستخير الله عز وجل في أمره، وأفعل الشيء نفسه، وتكون الخيرة لله.

«أما وقد أخذ عبدو على عاتقه مهمة الاختيار، وقرر أن يحمل الأمانة التي عجزت عن حملها الجبال، وقد دعونا الله كي يعيد ترتيب أقداره، ليكون اختيار العبد وحياً من الخالق، لا وسواساً من الشيطان.

(باب الانتقال)

عندما استقر أمر عبدو على العمل مع عفيف آغا النشواتي في الخان، فيرافقه دائماً، ويسانده في أمور العمل كلها، لم تنقلب حياة العربجي فحسب، بل حيوات رفاقه أيضاً...

ليلتها اجتمعوا في كوخ العم شيث، والد كرمو، كدأبهم كل ليلة خميس، فيؤدون الحضرة مع بقية الدراويش، علهم ينالون بالصالحين منهم شفاعة...

كان أبا كرمو يخطب بهم ويدور حولهم: الظلم لا يدوم، والظالم لا يؤذي العباد إلا بقدر قصاص مفروض عليهم لذنب اقترفوه، وهذا لا يبرر للمظلوم أن يخنع ويستسلم، بل يجب أن يرفض الظلم ويستغفر لذنوبه معاً، فمقاومة الظالم من طاعة الله، فالصمت على الظلم ظلمٌ أكبَر، وقول الحق في حضرة الظالم من صفات أولياء الله وكراماتهم، فالظالم كافر بالله حتى يرجع عن ظلمه... أيها العدل عاملنا برحمتك...

في حين أنهم كانوا يدورون حول النار التي غاب دخانها، وزادت حرارتها ونورها...

وعبدو يبتهل في نفسه: اللهم قني شر من خلقت وظلمهم، وارزقني من العمل أرفعه، ومن الرزق أوسعه، ولا تفضحني على رؤوس الأشهاد، وارزقني بلوغ الأماني... إلهي كيف يناجيك في الصلوات من يعصيك في الخلوات لولا حلمك يا حليم...

وفي لحظة صفاء أخذ عبدو يدور في فلك أحلامٍ نبتت في داخله حتى صارت بساتين... رأى نفسه فوق حصان أبيض، يجري بين بيوت وهو يحيي أهلها ويردون تحيته، كأنهم خاصته، أو رعيته... في قرية تتطاول فيها الأشجار وتبسق لتداعب السماء الأولى، فتصبح والأرض متصلتين...

وفي الصباح أخبر عبدو كرمو والنشمي قراره أن يهجر حياة «الزرباوية» ويمتنع عن سلب القوافل ونهب أموال الناس...

خضعوا لقراره وتمنوا له الخير... وتفرقت بهم سبل الحياة في جهات الأرض الأربع...

فأما كرمو فحاول أن يستمر في طريق السلب، ولكن المال الذي كان يسرقه من الناس كان يقترن في كل مرة بمصيبة تستنزف كل ما معه، بل تغرقه بالديون أيضاً، حتى أرهقه السداد وأقعده الحزن عن مزيدٍ من الجرائم، فقرر أن يحتمي بجناح والده، ليرث الطريقة الصوفية عنه، إرثه الوحيد، وغاية حياته... خدم والده وتقرب إليه بكل السبل لينال رضاه، لكن الأب لم يرض، ومات وهو منه غاضب، ولكن ذلك لم يمنع كرمو من محاولات طلب رضا والده، حتى فهم أخيراً أن رضا الله وحده قد يرزقه رضا والده عندما يتقابلان من جديد بين يدي قاضي السماء...

وأما النشمي... فأكمل السير في طريق السلب والنهب حتى آخر حياته، فقد كان على قناعة تامة، بأن طبع الإنسان كجلده يستحيل تبديله، وأن البشر لا يتغيرون...

(باب الرقيب)

راقب عفيف عبدو من كثب، وهذا أمر لم يأخذه العربجي على محمل شخصي، فقد قضى حياته كلها مُراقباً، ففي أثناء عمله مع (أبي شهاب) يذكر بأن العجوز ترك عبادة الله، وتفرغ لمراقبته.

«شعور الإنسان منا بالرقابة الدائمة توقظ بداخله أشياء لا إنسانية...

أشياء قد تجعل *ثلة* من الناس تترفع عن بشريتها بكل ما فيها من غرائز وشهوات، فتسعى للطهر والملائكية، متجاهلين بأن الطُهر الوحيد يكون حيث لا تكون الحياة، في أعماق الصحراء، أو فوق ذرات ثلوج القطبين المتجمدين...

وتجعل *ثلة* أخرى من الناس، تجنح في الاتجاه المعاكس، نحو الشرّ المطلق، ثورة كائن خُلق من ماء مهين يعلن عصيان خالقه، في معركة يوقن خسارتها، لكنه يصر على المقاومة، طمعاً في إثبات نفسه واستحقاق منحة الحياة، وهو الذي لا يملك في معركته سوى جسد ضعيف، تهلكه مخلوقات لا يراها بعينه المجردة

يكاد لسان حاله يقول: يا من تسمعني بلا نطق، وتعلم خواطري قبل أن تراودني، تحول بيني وبين أنفاسي، تسكن مجرى دمي، تعلم ضعفي، لن أعبدك خوفاً، وكيف نحب ما نخاف منه؟

وتجعل *قلة* من الناس، تتخذ سلوك المراقب نفسه، فتتحول الطريدة إلى صياد، وهذا ما صار إليه عبدو...

كان يشفق على عفيف في مراقبته إياه، ولا سيما بعد أن التقى شقيقه شريف وحزبه، متروكين بلا رقابة، والذين لولا ستر الله، وتهديد عبدو بفضحهم، لتحول عفيف إلى جثة معلّقة على مشانق السلطان.

(باب فوزية)

خان الدكة

دمشق

—

كان درويش يُنزل دفعة جديدة من الجواري، ويدفعهن بخشونة ليصطففن فوق الدكة قرب باب (الكرخان)، وفي الوقت نفسه كانت فوزية تُراقب القادمات الجديدات ببؤس، لاحظت نظرات الزبائن نحو اللحم البض المكشوف ببذخ للوافدات الأربع الجديدات، ربما تبلغ أكبرهن السابعة عشرة، وتبدو وجوههن مرايا للقمر، أما وجهها فقد بدأت تبدو عليه آثار التعب، قريباً ستستغني (الخانوم مارة اليهودية) عن خدماتها، وترمي بها على ناصية الطريق، لتعود -كما كانت- طعاماً لكلاب الشوارع... إلا إذا أفلحت مساعيها في الحصول على نقودها التي تبقيها الخانوم معها... ربما ستكفيها النقود التي جمعتها طوال فترة عملها في البغاء لتشتري حريتها!

كان مركز الخانوم في الطابق الأول خلف صالة القمار. وقفت فوزية أمام الباب الخشبي الثقيل، ويداها تتعرقان بشدة، مسحتهما بتنورة ثوبها، وسحبت نفساً ثقيلاً، ثم قرعت الباب..

«من بالباب؟»

«فوزية يا خانوم»

«ادخلي»

كانت الخانوم تمسح فمها وقد انتهت من تناول الطعام، رأت فوزية ما بقي في القصعة الفاخرة من بقايا اللحم المقدد، وعجة البيض، في حين أنها هي والفتيات الأخريات يتناولن الخبز وحده!

لطالما كانت الخانوم تشكو غلاء أسعار المواد الغذائية وذلك بسبب قلة المؤن، في حين أن كثيراً من خيرات الشام يذهب إلى الجيش العثماني لإطعام الجنود في الحملات. ولكن ها هي الخانوم وقد أتت على نصف رطل من اللحم!

قرقرت معدة فوزية، فهي لا تتذكر آخر مرة أكلت فيها اللحم! أفِ من هذه المُستَغلة الحقود! وتضاءل خوف فوزية أمام فورة بداخلها!

علا العبوس جبين الخانوم: «لماذا لستِ نائمة؟ إن مظهرك مُرعب، بالكاد بثّ تجذبين الزبائن وأنت بأفضل حالاتك! فكيف وأنت مُتعبة؟»

«بالكاد أجذب...! البارحة حضر إلى غرفتي اثنا عشر زبوناً!»

مسدت الخانوم الدامسكو الأحمر المتماوج في ثوبها، لكن ذلك لم يخفِ اللحم المترهل حول خصرها وفخذيها. كان خداها منفوخين وقد رفعت شعرها فوق رأسها، حتى شحمتي أذنيها بدتا بدينتين!

أما فوزية فقد كاد بطنها يلتصق بظهرها بسبب النحافة...

«أرى بأن فكرك مشغول بأمر ما، قال لي درويش بأنك لم تتناولي الطعام، أتريدين أكل شيء ما؟»

مدت الخانوم يدها بسلة تحوي خبزاً طازج...

«أريد ما لي عندك من نقود»

ضحكت الخانوم وانحنت لتسكب لنفسها قهوة تركية في الفنجان، فاحت رائحة الهال والمستكة والزعفران التي أضيفت إلى مزيج البُن، وتساءلت فوزية: من أين جاءت الخانوم بالزعفران يا تُرى، والحروب تطحن حدود البلاد وثغورها؟

رشفت الخانوم القهوة بصوت مسموع، استفز أعصاب فوزية: «لماذا تريدينه؟»

- «لأنه مالي»

رمقتها الخانوم بنظرة تسامح: «شاركيني القهوة، ولنتحدث بما تريدينه حقاً»

- «أريد نقودي فقط... حقي...»

- «أكان لديك زبون مزعج البارحة؟ هل ضايقك العربجي؟»

لم تجبها فوزية، زمّت عينيها، ولم تخبر الخانوم أن العربجي قضى معها ساعة واحدة لم تتكرر، مع أنه يتردد على الماخور بانتظام...

«أريد أن أشتري بيتاً وحوشاً... سئمت الحياة هنا...»

اكفهر وجه الخانوم:

- «حتى تعملي لحسابك؟ وتسرقي زبائن الخان؟»

هزت فوزية رأسها نافية:

- «أريد أن أختفي من هذا المكان، وأنسى أنني قد عشت فيه»

تنهدت الخانوم وردت باستحقار:

- «يا لك من ناكرة للجميل!»

- «قد أتزوج»

ضحكت الخانوم حتى انقلبت على ظهرها:

- «ومن يتزوج غانية واقعت نصف رجال الشام؟»

لم ترد فوزية بكلمة واحدة...

استقامت الخانوم في جلستها وأكملت بجدية:

- «كم تريدين علاوة؟ تكفيك ليرة مجيدية؟»

- «أريد ما كسبته خلال عملي فحسب... حتى أذهب في حال سبيلي...»

ضيقت الخانوم عينيها ثم تنهدت تنهيدة ثقيلة، كأنها تستسلم لمشيئة فوزية:

- «حسناً، ولكن لا أملك ما يكفي لتسوية حسابك الآن، تعالي بعد ذهاب الرجال هذه الليلة لنتفق»

- أشارت فوزية بيدها نحو خزانة الخانوم: «أعرف أن في خزنتك ذهباً يكفي لتسوية حسابي، بل حسابات الجميع!»

نهضت الخانوم وردت بصوت كالفحيح: «أعلم بأن أحد الرجال يتردد على غرفتك بكثرة، هل هو عشيقك؟ هل منّاك بالزواج؟ لأنك تتكلمين كغبية واقعة في الحب، مستعدة للتضحية بكل شيء دون مقابل، صدقيني، إن كان هناك امرأة يستحقرها الرجال أكثر من العاهرة، فهي العاشقة، التي تمنح حبها دون قيد أو شرط!»

ارتجف جفنا فوزية... كانت عاشقة بالفعل... ولكنها وحيدة ومهجورة ولا تملك ما تخاف خسارته...

قعرت فوزية راحة يدها: «كيس بهذا الحجم هو كل ما أتوقعه... لقد خدمتك طويلاً... أنت لا تمتلكينني!»

ردت الخانوم: «أملكك، كما أملك رقبة كل من تطأ قدمه عتبة الخان!»

هبت فوزية فاقدة السيطرة على لسانها... وفي هذا أصابت مقتلها:

- «ما أنت إلا خنزيرة ترتدي ثياباً مبهرجة! يائسة ما عاد يرغب فيها أي رجل! تمثلين دور ضحية الظلم! ولكنك أسوأ أنواع الضحايا! فأنت تصنعين من الأخريات ضحايا مثلك! أنت أسوأ من العاهرات!»

علا الشحوب وجه الخانوم، وعلا صوت صرير أسنانها حقداً، وتسارعت دقات قلب فوزية أكثر فأكثر: «أعلم أنك زدت تسعيرة لحمي، صرت تبيعينني بالرطل، كم تقبضين ثمني؟»

فردت الخانوم بسرعة: «ماذا لو قلت لك أن لا مال لكِ عندي، وأن الرجل الذي تبغين ترك حياتك هُنا لأجله، جالس الآن بين ساقي مرجانة؟»

أحست فوزية كما لو أنها لكمتها في قلبها، وهي تعلم بداخلها بأن الخانوم قد تكون صادقة... فردت بصوت كالفحيح: «لا يهم... أنا ذكية وأستطيع كسب عيشي بوسائل كثيرة»

تمالكت الخانوم نفسها والتوت شفتها بابتسامة النصر: «لو كنت ذكية لما كلمتني كما تفعلين الآن!»

تقدمت الخانوم إليها ومست شعرها: «هل نسيت أسابيعك الأولى في دمشق؟ هل أفقدتك كثرة معاشرة الرجال ذاكرتك؟ لما رأيتك أول مرة، كنت قد هربت من قريتك خوفاً من الطاعون، عشقة؟ أليس هذا اسمها؟ على جسمك كدمات ضرب مبرح، وأنت تكادين تموتين جوعاً؟ انتشلتك من الطين، قبلت يدي لأمنحك كسرة خبز... والآن تعضينها؟»

نترت الخانوم فوزية بعيداً: «يا لك من ناكرة! ليس جسدك العاهر فقط! بل روحك صارت مثله! درويش على حق!»

ارتعدت أحشاء فوزية خوفاً عند ذكر درويش وتبخرت ثورة غضبها كلها بينما قفز درويش من الباب وأصبح في مُنتصف الغرفة، وسارت الخانوم نحو الباب وهي تقول: «حاول أنت أن تقنعها يا درويش! فأنا متعبة وخائبة الأمل!

أغلقت الخانوم الباب خلفها بينما خلع درويش سترته وقال لها بكلمات زحفت على جلدها واقشعر بدنها منها: «لا تخافي، لن تخلف كلماتي أي ندبات في مكان ظاهر! لن ننسى بأنك تعملين الليلة... بجد! صحيح؟»

نطفت روحها... إلهي! أما من سبيل للانعتاق؟

«ومتى يكون الهرب من الذات أمراً يسيراً؟

فلا هو آمن في الهند ولا آمن في خراسان.

ذلك الذي خصمه نفسه التي بين جنبيه؟»

كان أمامها سبيل واحد لتتحرر...

دمعت عيناها وهي تواجه درويش... وقالت له ساخرة: «كلب الخانوم الأليف سيعضني»

ضحكت بهستيرية وبدا صوت ضحكاتها كأنها تسمعه أول مرة... انهال عليها درويش بالضرب... يده كبيرة كمخباط... يدهسها كصرصار لا قيمة لوجوده... لم تكف عن الضحك من حالها ذاك! هل هذا ما يسمونه الحياة؟ هذه النكتة السمجة؟ وبعد الضربة الرابعة توقفت عن العد...

«ستصبح عشقة، القرية التي قضى الطاعون على جميع سكانها بسبب جشع مُختارها، بعد سنوات، دولة العربجي!

أما فوزية فستصبح خيبته!

وفي هذا يقع اللوم علي بشكل كلي!

فأنا من زرع الفكرة في رأسه»

(باب نكح الزانية)

فعندما مر عبدو لزيارة العربجي «أبي شهاب» بدافع الواجب فحسب، وقليل من الفضول، وجده ميتاً، عيناه مفتوحتان على اتساعهما، والدود يخرج منهما، تقيأ عبدو حتى كادت أمعاؤه تخرج من بطنه، ولم يفكر بإخبار أحد عن موت العجوز، فلا أحد سيهتم! ولا أحد سيذكره! ولا أحد ليواريه التراب

ستتعفن جثته في العراء كما لو كان كلبًا، ولن يجد من يستره!

أخذ عبدو ينبش حفرة خارج مسكن أبي شهاب بيديه وأسنانه وهو يشعر بالرعب... هذه ستكون حاله عندما يحضر الموت! سيجده وحده، ينفرد به، يلوكه ثم يبصقه جثة هامدة لا أحد هنا ليواريها القبر! فكرمو والنشمي وحسني لن يدوموا له، سيذهب كل واحد منهم إلى منزله، يغلق بابه، والله وحده يعلم ما يجري خلف الأبواب المغلقة!

لف عبدو نطاقه حول أنفه وجر الجثة إلى مثواها الأخير بينما دمعت عيناه بشدة من أثر الرائحة، وليس –لا سمح الله- الحزن!

أهال التراب على العينين المتآكلتين... تبوّل على قبر ظالمه... وأسرع إلى منزل صاحبه...

ارتجف فوق الفراش في منزل كرمو بشدة، لا برداً ولا خوفاً، بل يأساً.

وعندما انبلج الصباح أعلن العربجي أمام صديق عمره:

- «سأتزوج»

- «ومن صاحبة الحظ السعيد؟»

عدد النساء اللواتي قابلهن عبدو في حياته يفوق عدد شعر رأسه الآخذ بالتساقط كل يوم

قابلهن بأكثر الطرائق حميمية... ولكنه لم يعرفهن حقاً، يقضي وطره، ويمضي... لا يعنيه أمرهن، ويعنيهن أمر جيبه... قد يتردد على احداهن مرات عدة... ***كأريحا*** أجمل غانيات خان (قليط)... في الأيام التي يعمل عبدو بها، ويجني ثماني ليرات أو أكثر، يسرع إليها، تستقبله بحفاوة كفاتح مُنتصر، وعندما تقل الليرات في جيبه ترميه في حضن امرأة أخرى، كأنه متاع بين يديها، ترمي به كيف تشاء.

يذهب عبدو إلى الخان في وقت متأخر. ليكون الزبون الأخير، فالمرأة التي يعاشرها تصبح بعده غير صالحة للاستعمال البشري... فقد كان يعمل بجد أكثر من بغله و \يلعب\ بجد أكبر.

«سأطلب من امام الجامع أن يخطب لي»

ضحك كرمو بشدة!

«تريد ان تتزوج فتاةً تدرس في الكُتاب؟ تتلو القرآن وتحفظ الأحاديث؟ وأنت الكتاب الوحيد الذي تعرفه هو فضائل النكاح للامام السيوطي؟»

الأصدقاء نفس ثانية خارج الجسد، لتساعد الإنسان على أن يرى بوضوح، فيطمئن، فكرمو على حق بالتأكيد.

«الزاني لا ينكح إلا زانية، أو مُشركة»

أومأ كرمو برأسه: -«رحمة الله بالزاني! هل تريد زوجة عذراء تختنق بين يديك بعد أول قبلة؟ أو لتنزف حتى الموت بعد أن تفض بكارتها؟ فتاة متدينة فتدين تصرفاتك وسلوكك؟ ولا أحسبك تتوب لأجل امرأة»

في ذلك اليوم عمل عبدو وبغله بجدا! وبدل أن يجمع صداقًا للعروس، حمل النقود التي كد لأجلها وذهب إلى خان الدكة... ربما يبحث عن زوجة غداً...

كان الخان شبه خالٍ، ماعدا رجلين يلعبان النرد ويسكران، كان الرواق المؤدي لغرف الفتيات مظلماً وهادئاً، هادئاً جداً، خلا صوت ضربات رتيبة..

- ما هذا الصوت؟

نظر إليه أحد الرجلين، وأخذ نفساً من النرجيلة المجاورة له وقال بصوت متراخٍ

- درويش يؤدب إحداهن!

خطا نحو الرواق، ودلف عبره، خرجت الخانوم من أحد الغرف: «ماذا تفعل هنا؟»

حاولت أن تعترض طريقه لكنه نترها، وعادت تتشبث بذراعه: «اخرج من خاني!»

بدت الخانوم كفأرة تبغي اعتراض طريقِ فرس!

وصل إلى الغرفة وفتح الباب ورأى درويش يرفع ذراعاً في الهواء ليضرب كومة اللحم النازف بلا حياة على الأرض...

اندفع نحو درويش ليبعده، ولم يلق أي مقاومة، فدرويش يعلم أن قتل الرجل أسهل على العربجي من شرب الماء، فقفز إلى الخلف وفر هارباً بينما انحنى عبدو على الأرض وحمل فوزية وأسندها إلى جسده كما لو كانت لا تزن أي شيء، قالت الخانم: «اخرج من هنا ودعها وشأنها»

نظر عبدو إلى الخانوم كأنه لا يراها وقال بصوت ميت: «سأخرج، لكن سآخذها معي»

عندما أفاقت فوزية من غيبوبتها بعد ثلاثة أيام، ورأت عبدو يقف فوقها كالجبل، حسبت بأنها ماتت ونفيت إلى الجحيم وهي الآن في حضرة ملك العذاب...

وبعد أن عرفت بأنها، ولما كانت بين الصحو والإغماء وافقت على الزواج بعبدو العربجي...

تمنت لو أنها ماتت بالفعل!

(باب الأخوين، شريف وعفيف)

كان الأخوان شريف وعفيف متشابهين جسدياً إلى حد التطابق أحياناً، جسداهما ضئيلان، ويسيران بجانب الحائط، عفيف يسأل الله الستر، وشريف يسترق نظرات من الثغرات في الحائط بشكل خفي كي يرى ما خلفه...

لا أحد يمكنه أن يقرر إن كان الشيطان هو من فتن بين عفيف وأخيه، أم هو شعور متأصل توارثه البشر عن أبيهم قابيل، فالبشر بصرف النظر عن أصلهم... سلالة قاتل، أفسد الأرض وسفك الدماء...

لكن اللحظة التي أعلن فيها عفيف لأمه بأنه صار يعمل تحت إمرة كمال آغا، هي اللحظة التي انغرس فيها سهم الغيرة في قلب شريف...

بل إن اليوم الذي نادى به كامل آغا عفيف، ليحضر إلى مكتبه ليحادثه حديثاً خاصاً، كان اليوم الذي أحس به شريف بكره لم ينتبه قبلاً تجاه أي شخص آخر.

وعندما أعلن عفيف بأن كمال آغا الجوخدار، قرر أن يزوجه ابنته الوحيدة **درية** خانوم، لما رأى من صدقه وأمانته، كان ذلك أسوأ يوم في حياة شريف، لدرجة أنه نسي بأنه صار أباً لابنه حمزة في اليوم نفسه، لدرجة أنه صار راغباً بتمزيق رقبة أخيه ومص دمه كي يشفى غليله، لدرجة أنه... قرر ابتلاع تلك المشاعر كلها تحت غطاء من ادعاء محبة أخيه حتى العبادة... بينما الكره يكبر بداخله كورم خبيث لا يمكن استئصاله... وصارت الكراهية بداخله كبئر، يُعبئه بصبر وثبات، فكل حدث سعيد في حياة عفيف، هو جلمود كراهية في بئر شريف، كل هدية وكرامة من كامل آغا لصهره، هي مسمار جديد في نعش المحبة التي ماتت بداخل شريف، وفاحت رائحتها، وانتشر أثرها ككمد دائم يغطي وجه الأخ عندما يحضر أخيه!

وعندما ولدت درية ابنها البكر صبياً، بقي شريف مريضاً في الفراش شهراً كاملاً، وقد صار لأخيه صبي سيرثه ويرث آل الجوخدار وربما يصبح متصرفاً،

كون أمه عثمانية الأصل.

طلب عفيف مشورة أفضل أطباء البيمرستان لمعالجة أخيه، وكان هذا الفعل اللطيف هو ما دفع شريف إلى حافة الموت. ولا أحد يعرف كيف عاد منها. أما لماذا عاد... فهو الأمل... الأمل بأن تنقلب الأحوال، فيصبح السيد عبداً.

«أخبرني شريف بذلك وهو على فراش موته الأخير، فالله يعلم أن القلب الذي يعتاش على نبض الكراهية يموت كل يوم، ويخسر كل يوم.

لم أسأله عن سبب كرهه أخاه... السبب قديم قدم البشرية نفسها...

فالروح الإنسانية ملعونة بطين الجسد، والطين مداس الجميع، وفي النهاية قبر يواري نتنهم، وهذه الروح لا تزال كما خلقها الله، ولم يعط أحدًا سرها.

فلا تسأل أحداً، لم تكره فلاناً...

الكراهية سهلة جداً، مُتعبة وربما مُنهكة... ولكن طريقها سهل مُعبّد...

أما المحبة؟ فتلك أصعب المهمات»

كان عفيف أعمى عن مشاعر أخيه، أو لعله يتعامى... لا فرق...

في حين أن عبدو رأى الحقيقة منذ اللحظة الأولى... فلطالما نظر إليه (أبو شهاب) بالطريقة نفسها...

عين الكراهية لا تخطئ.

(باب بداية العداء)

في أحد نهارات دمشق الباردة، أفاق عبدو يرتجف، حلم بزلازل، ونساء ينقلبن رجالاً كلما اقترب من واحدة منهن، كانت زوجه تنام قربه، وكم بدت بعيدة عنه، ارتدى ثياب العمل بسرعة، ثم اقترب من وعاء اللبن الذي صدرت منه رائحة الحموضة، تجاهلها عبدو وتجرع جرعات صغيرة من السائل الأبيض، ثم عاد إلى الغرفة وحمل غطاءه وخرج مسرعاً نحو الحظيرة ورمى الغطاء على البغل الذي كان أنفه يقطر من البرد، وضع له كومة العلف...

سمع أحد الدراويش من فتحة بالحظيرة يقول: «اللهم ارفع البلاء والغلاء! مد الشعير بثماني ليرات، والخبز باثنتي عشرة!»

ضاق عبدو ذرعاً بالصوت... بل ضاقَ ذرعاً بحاله! ففي بيته أربعة أفواه مفتوحة دائماً، وقد حرم على نفسه أن يتركها تشعر بالجوع، ولو اضطر لقطع لحم كتفيه وطبخه، فسيطعمهم!

لكن الدفء قصة مختلفة، فرطل الفحم بثلاث ليرات، ويحتاج المنزل خمسة أرطال على الأقل لزوم الطبخ والدفء، وثمن ذلك جلّ يوميته!

وتردد الصوت في عقله: «عليك بالسعي والعمل، ودع التدبير والتفكير للرب»

سمع الباب يدق، فتحه وعلى وجهه كل ما يعتمل بداخله، كان الطارق رسولاً من النشمي، الذي لم يترك حياة قُطاع الطرق (الزرباويين) بعد أن تشتت عصابتهم، أخبره بأن صديقه قد أصيب في عملية سطو على قافلة الوزير وهو يطلب رؤيته، نظر عبدو إلى داخل منزله حيث أربعة أرواح معلقة به، وشعر بأنه ممزق بين عالمين.

أخذت زهرة التي استيقظت من نومها ترتجف برداً تشد ثوبه إلى الداخل.

نظر إليها ثم نادى زوجته بصوت غاضب فدمعت عينا طفلته

هبت رياح شديدة في الخارج... فصرف عبدو الرسول دون رد واضح.

حملت فوزية ابنتها وانطلق عبدو إلى عمله بفتور... فشريف النشواتي كالشوكة في خاصرته، وخاصرة كل شخص يكن له عفيف وداً.

رأى ثلة من الفتيات الصغيرات صحبة امرأة ملتفة بالقفطان سائرات باتجاه المسجد لحضور الكُتاب... كان يعلم مسبقاً بأن ابنتيه زهرة وحسنية لن تتعلما القراءة والكتابة، أما لُطفي فسيرسله ليعمل عندما يبلغ الخامسة من عمره، نظر إلى السماء بحرقة: إلهي لم توقف وحيك؟ كنت تنزل علمك إلى أنبيائك جاهزاً... ونحن الفقراء؟ إنا عبيدك، فكيف نعرفك دون الكُتاب؟ وكيف نسمع صوت الشيخ بينما صوت بطوننا يصم آذاننا؟

أكمل طريقه إلى المخزن وهو يجر بغله الذي بدا مريضاً..

آخر ما يحتاج إليه هو مرض ما قد يقعد البغل عن العمل..

كان أول الواصلين من العربجية إلى الساحة قرب المخزن.. فهو يعلم بأن اليوم هو موعد نقل الرزق من المخزن إلى القافلة الأميرية التي سترافق فوج الحج إلى الديار المقدسة... وهو يطمع بنقل الرزق على عربته، هكذا يراه رجال أمير الحج، مما سيجعل له حظوة لديهم، كما أن أجرة هذه المهمة، ضعف أجرة المهمات العادية... وهذا سيوفر الدفء لمنزله...

دلف عبر باب المخزن بنشاط ورأى أكياس الرزق مرتبة فوق صناديق خشبية لتحميها من الرطوبة وتحمل الختم الأميري... سمع صوت خطوات قادمة من الباب الخلفي

فتوارى في الرواق المؤدي إلى مهجع العمال... وأخذ يراقب المكان...

رأى أحد العمال يحمل كيساً عن أعلى الكومة ويحمله باتجاه الباب الخلفي... وعندها تنبّه بأن صفاً كاملاً من الأكياس قد اختفى من الكومة

اختفى العامل عبر الباب الخلفي، وعاد بعد قليل ليحمل كيساً آخر... وكرر الأمر حتى أتى على صف كامل من الأكياس...

وبعد الكيس الأخير، عاد وأغلق الباب الخلفي وراءه..

أسرع عبدو بالخروج من مخبئه واتجه نحو الباب الخلفي ليرى عربة قد امتلأت بالرزق والعامل يسرع ليغطي الأكياس بقماش سميك عازل، ثم يذهب للبحث عن حبال لربط القماش...

تحين عبدو الفرصة ليسرع بالاختباء بين الأكياس... ثم أحس بالعامل يشد الحبال حول الرزق، وأحاط طرف الحبل برقبة عبدو حتى كاد يختنق، وعندما تحركت العربة أبعد الحبل عن رقبته، أخذت معدته تصدر أصواتاً بسبب الجوع... وربما لأن جسده استعاد شعور حماسته القديمة نحو حياة محفوفة بالخطر..

كان الطريق وعراً فتمسك عبدو بعصاه بشدة وهو يقحم طرفها بمسمار برز من أرضية العربة حتى لا ينزلق ويقع...

تبادرت إلى ذهنه صور الحلم الذي رآه...

توقفت العربة، استجمع عبدو شتات أفكاره التي بعثرتها رعونة سائق العربة وتمسك بحافة العربة بشدة، وتهيأ للقفز...

لم يتردد للحظة واحدة!

لطالما اندفع باتجاه الخطر... لا يخيفه وجه الموت... فقد قابله كثيراً، حتى أصبح مشهداً معتاداً...

عندما أزال العامل القماش العازل رمش عبدو لثانية واحدة حتى يعتاد النور الغامر الذي أحاط به... كانا في الطريق البري المحاط بالغابات خارج المدينة... قفز من مكانه وهو يشهر شنكله في وجه المجهول...

وجد أمامه عصبة من عشرة رجال أو ينيف... ويقف خلفهم... شريف!

- هذا أنت يا شريف؟

أشار شريف برأسه إلى رجاله: «دبروا له!»

رأى عبدو الموت يحفهم بظلاله الكالحة...

أخذ يلوح بشنكله، يحاكي رقصة حاصد الأرواح الذي يحفهم بظلاله على وقع ألحان الكراهية التي تبدو كدبيب دم حيوان مذبوح... ذات ذبذبات يميزها الوحوش والوصوليون...

تكوم الرجال بعضهم فوق بعض... تداخلت سيقان بعضهم برؤوس بعضهم الآخر. وسالت الدماء بين عبدو وأبي حمزة.

همس عبدو: -ماذا ستدبر أيضاً؟

أخذ يخطو ببطء باتجاه شقيق الرجل الذي غير حياته، فهل يقتله كما قتل رجاله؟

كان شريف متحفزاً، ممزقاً بين رغبته بالهرب... ولكن إلى أين؟

صوت ارتطام شنكل عبدو بأجساد رجاله يدمّر تماسكه، والدم ينتشر أكثر بعد كل خطوة يخطوها... كان يجلد أعصاب السارق...

- تعرف بأن أخاك اتفق مع وزير الأمير ليسلمه الرزق اليوم واستأمنه على الخاتم... وأي نقص من مؤونة الحجاج سيحاكم عليه عفيف آغا بالشنق!

- آغا؟ آغا؟ لماذا هو وليس أنا؟ أي قربان قدمه للإله حتى تقبله وفتح عليه وأمسك عني؟

«المنع عطاء..» همس ملك الموت في اذن العربجي...

- اسأله! وأشار برأسه إلى السماء...

وقف الرجلان متواجهين...

كان العار من وراء شريف والموت أمامه!

انهار على الأرض وأخذ يقبل رجل عبدو ويتوسل إليه ويتمسح بالتراب تحته كما لو كان ولياً...

اندفع الدم إلى رأس الرجل الفقير، الذي لطالما نظر الناس عبره بدل النظر إليه، وها هو الآن! ابن سلالة النشواتي، حزب كمال آغا الجوخدار راكع تحت ساقيه، يطلب رحمته!

في هذه اللحظة رأى العربجي غايته في الحياة، أن يدوس الرؤوس ويتعالى فوقها، أن يصل إلى أبواب السماء ويطرقها، ويتوسل الناس باسمه قربى للإله كي يغدق عليهم عطفه! وأن يبني جنته على الأرض!

رفع شريف رجل عبدو ووضعها على رأسه...

- كرامتي وكرامة عائلتي تحت رجليك... العفو والصفح...

رجليه؟ من يملك القوة تعوضه عن كل نقص... فحتى لو لم يمتلك رأساً... إن كان قوياً، فلن يهتم الآخرون لافتقاده الرأس... وما بداخله!

داس على رأس الرجل بخفة وهو يشعر بنشوة لم توصله إليها أية امرأة!

رفع رجله ونتر شريف بها، ثم رفع يده إلى السماء وصرخ: يا جبار!

ثم بصق قرب شريف: -اذهب الآن! اختف من أمامي!

لن ينسى شريف ثأره! سيجعل عبدو يقبل قدمه... ليس في البرية، بعيداً عن أعين الناس حيث لا شهود! بل سيكون ذلك في المضافة، أمام أعين الخلق... وأمام عيني زهرته...

(باب سلطان الظلام...

أو كيف أصبح قتل الرجل

أسهل على العربجي من شرب الماء؟)

دخل عبدو بخطوات واثقة وأظهر أسنانه التي يؤطرها لون أسود سببته الحشيشة ويلونها لون أصفره سببته معاقرة الكحول...

فهو يستطيع دخول أي خان من دمشق وحتى حلب، ويحيي أصحابه بنبرة واثقة، والأمر ينطبق على تكيات المنطقة بأسرها...

- مساء الخير خواجا يوسف، هل توجد غرفة لي؟

زم صاحب التكية فمه مشيراً بالرفض...

- التكية مشغولة كلها!

- جئت من الشام وكنت أنوي العودة الليلة، لكن هطول المطر بغزارة يمنعني والعربة من الحركة، فماذا أفعل الآن؟ أنام في العراء؟ أم ستدبر الأمر؟

عاد يوسف يزم شفتيه بحركة مرتابة، ثم قال أخيراً:

- سأسعى لتأمين فراش لك... لليلة واحدة فقط...

- سيان...

وضع عبدو متاعه على الأرض.

- الغرفة في نهاية الممر فيها ثلاثة فُرش

رد عبدو باهتمام: -ومن يكون شريكايّ في السكن؟

- أحدهما صائد كنوز*، والآخر ليست لدي أدنى فكرة من يكون، وماذا يفعل.

*«فأما صائد الكنوز فكان يُدعى كرمو، فقبل لقائي بالعربجي ولاحقاً بالنشمي وحسني كنت أجوب الأرض باحثاً عن الطمائر والذهب، بالذات في القرى المهجورة وبين أطلال المدن البائدة، كُنت أحفر لأيامٍ فأجد كنزاً لا يكفيني ثمنه عدة أيام حتى أعود مفلساً من جديد لأبحث عن كنز آخر، كانت لذة إيجاد الكنز لا تعدلها لذة أخرى، عندما ترى بريق الذهب من تحت التراب تُحس كأنك تُحلّق فوق الغمام، ربما يكون بريقاً زائفاً، لكنه يعمي البصر والبصيرة.

تركت التنقيب مدة من الزمن ولم يتركني، بقي كدودة تلتهم عقلي، لكن حياة السلب والنهب مع عبدو النشمي وحسني، خففت لهفتي لايجاد كنز جديد!

وبعد أن التقى عبدو عفيف النشواتي وقرر أن يتوب عن النهب، تفرقت سبلنا... وانتابتني حمى الذهب من جديد فقد فقدت سُلاميتين من يدي بسببها، يومها أصبت باحباط شديد بعد الحفر أربعة أشهر دون أن أجد أي شيء ثمين، وعندما تحطّم معولي، فارت أحماض معدتي جزعاً، وشعرت بحمم النار تتحين للانفجار، فأخذت أحفر التراب بيدي العاريتين، وبرودته تلسع رؤوس أصابعي كالدبابيس، ودموعي تختلط بأمطار غزيرة، حتى اصطدم سعيي بصخرة صماء واسودت سلاميات أصابعي، أصبت بالغرغرينا وقطع الحكيم اثنين من سلاميات أصابعي، أصبحت بلا ابهامين، عاجز عن امساك المعول والحفر، فصرت أشتهي الموت...

حتى قابلت المعلم الأكبر فأخبرني \كلّ ما خارج نفسك جماد بلا وجه، فلا تسمح له أن يسفك ماء وجهك، ويسلبك اياه! ولكن احفر داخل نفسك، لتجد الكنز الأكبر، ثم اصقله حتى تصبح أنت نفسك مثال الحقيقة...

عدت إلى كنف أبي... شيخ الطريقة الصوفية... وحملت رايته بيدين ناقصتين، ورغبة كاملة في الوصول إلى من تؤدي كل الطرق إليه، يا واجد! دلني عليك»

وبينما صاحب الخان يعد الطعام لزبائنه، مر عبدو بنظره حول المكان، عندما يكون ماله غير كافٍ، يحاصره التعب والملل كعدوين شرسين

وصلت إليه رائحة حساء العدس، لكن عقد التوتر في معدته ستمنعه من الاستمتاع بأي طعام، خرج الخواجا من المطبخ باتجاه الغرف، ونظر عبدو في اثره بينما وقع قطرات المطر يتخامد، حتى توقف تماماً...

ما أحوجه إلى دفء جسد امرأة!

رجع يوسف وقال: «أتريد الذهاب إلى الغرفة الآن؟»

- ما زال الوقت مبكراً... سأحرك ساقي قليلاً في الخارج...

حمل يوسف الأمتعة القليلة وذهب باتجاه الغرفة بينما مضى عبدو ليتمشى في الشوارع المظلمة.. أخرج ما بجيبه من نقود... ربما تغنيه كأس نبيذ عن صحبة امرأة، مر قبالة الواجهة القاتمة للحانة، وقبض على ماله بشدة قبل أن يندفع لشراء كأس من النبيذ، جلب الكأس وجلس قرب الباب ليسرع بالخروج فور انتهائه، ولا يخضع لإغراء شرب كأس آخر، رأى الكثير من المعارف، ممن يعرف نقاط ضعفهم ولا يعرفون نقطة ضعفه، بل كان هذا أهم معالم قوته، فعكس الكثير من رفاق الشرب والمجون، كان عبدو واضحاً، لا يخبئ سلوكه الشهواني ولا يتفاخر به، بل لم يعرف سلوكاً غيره لفترة طويلة من حياته؟

فقد كان يرافق «أبا شهاب» إلى الخمارات وبيوت الليل منذ طفولته، ينتظره خارجها أحياناً، وأحياناً يدخل معه، يعطيه العجوز بقايا كأسه ليشربه، ويعلمه أصول معاشرة النساء، لم يدخل المسجد حتى صار في الخامسة عشرة من عمره، سمع عن الله، عن جنته وجحيمه بعد ذلك بوقتٍ طويل... وأحبّ الإله، بعد أن حكى له (أبو كرمو) عنه.

أحب الإله الذي قال: *(يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا)*

فوجد بأنه والإله متفقان... كلاهما يكره الظلم...

وفي حين أن الله حرم الظلم على نفسه، لم يحرمه العربجي... وأي ظلم أشد من ظلم رجل كان مظلوماً فتجبر؟

لم تشكل معرفة الله صراعاً داخل العربجي... فالله يغفر لمن يستغفره، والعبد لا يبلغ نفع الإله أو ضره، ويملك أن يحبه بكل الطرق فحسب...

ولما أنهى كأسه وهو جالس قرب الباب اقترب منه أحد العربجية وقدم له كأساً آخر على حسابه... ودفعه للدخول بينهم... حتى أتى على أربعة كؤوس، وتعاطى الحشيش ودخن النرجيلة حتى شعر برأسه وقد صار بحجم الحانة كلها

وعندها رأى فارس الظلام... أو تراءى له...

لمحه من نافذة الحانة، فانتفض في مكانه، شعر بالخوف! للمرة الأولى في حياته!

بدا الوحيد الذي يرى ذلك الكيان... كأنه أتى خصيصاً من أجله!

- أترونه؟

لم يكترث لأمره أحد...

قفز من مكانه فتناثرت الكؤوس والنرجيلة فثارت ثائرة الرجال بينما أسرع ليخرج من الحانة جزعاً، فالسبيل الوحيد للتخلص من الخوف، هو مواجهة مصدره!

كان الشارع خالياً إلا من برودة الجو التي تتسلل إلى العظم لتنخره..

ضرب العربجي الأرض بقدميه...

- أين اختبأت؟

لم يلق جواباً إلا من ذئاب الليل والضباع، التي ملأ عواؤها الفضاء

وجد التكية مغلقة، قرع بابها بقوة، وتردد صدى الصوت كأن ولدياً عظيماً خلف

الباب، بل ربما تردد الصوت في رأسه فقط

فُتح الباب وحده، ولم يجد خلفه أحد... فخطى إلى الداخل بخشية وسمع همساً من الرجل المستلقي قرب الممر..

أغلق الباب بعد الدخول

أغلق الباب وعندها رأى الحبل المعلق بالمزلاج والذي فُتح الباب بواسطته

دخل الغرفة في الممر، كان ضياء السراج الخافت يغمر الفُرش بظلال خفيفة

رأى متاعه فوق أحد الفرش، ورأى في الفراش الآخر جسداً ممدداً يغطيه اللحاف حتى رأسه...

قال محيياً ليكسر رهبة الصمت التي غمرته:

- مساء الخير!

- لا تُحاول، إنه لا يرد ولا يصد! (أجابه كرمو المستلقي فوق الفراش الثالث وقربه دن الخمر)

مساء النور... إذاً... أنت عبدو العربجي؟ لقد سمعت عنك الكثير

رفع كرمو الدن باتجاه عبدو... ولكن الأخير هز رأسه بالرفض...

- أسرفت بالشرب...

كان يبدو بوضوح أن الرجل الثالث ليس نائماً، فالغطاء فوقه مشدود بقوة كأنه يتمسك به...

همس كرمو:

- ربما يكون صاحبنا مريضاً...

خلع عبدو ثيابه وبقي بقميصه الداخلي

أظهر الرجل الثالث وجهه من بين الملاءات وخاطب كرمو:

- هل لي ببعض ما عندك من شراب؟ عله يبث الدفء في عروقي

نظر كرمو إلى العربجي كأنه يستشيره، فهز الأخير كتفيه، ثم اقترب من الدن وحمله إلى الرجل الذي بدا مريضاً، في حالة يرثى لها، لكن عبدو لم يرث له، كان غير قادر على الشعور بالشفقة، فلطالما استوى عنده الموت والحياة، أمسك الرجل بالدن وعب منه كأنه ماء...

اعترض كرمو بصوت مهتز من أثر سكره:

- على رسلك!

أعاد الرجل الدن واندس بين الملاءات من جديد... شخر كرمو وقد غط في إغماءة سكر...

دس عبدو جسده بين الأغطية، حاول أن يسترخي...

استلقى فوق الفراش ولكن حواسه تيقظت بطريقة لم يشعر بها قبلاً

ظلال داكنة أخذت تتراقص على سقف الغرفة... كأنه هو...

جفل عبدو فوق الفراش... فارس الظلام يحوم قريباً... نظر حوله ورآه يحوم فوق رأس الرجل الثالث... اتسعت عيناه بشدة...

- هل ستقتله بيدي؟

كان الموت يخاطبه...

لقد قضى تسع عشرة سنة في هذه الحياة... والآن يقابل الموت للمرة الأولى

غاب عن الوعي لحظات... ربما كانت ساعات...

وفي اللحظة التالية التي فتح بها عينيه، نظر من بين الملاءات، رأى الرجل

الثالث يشهر سكيناً ويحمل وساده ويقترب ببطء من فراش كرمو... سيضع الوسادة فوق فمه ويقتله..

- هل ستقتله بيدي؟ تردد الصوت بداخله

قفز عبدو من فراشه ليهاجم الرجل الثالث!

لم يتعاركا طويلاً... قبل أن يرفع عبدو الشنكل ويهوي به على عين الرجل ناكر الجميل... اخترق المعدن كرة العين وجره عبدو نحوه كسمكة نافقة

كان كرمو يراقب ما يحدث مصدوماً... كأنه لا يعلم إذا كان ما يحدث أمامه حقيقة أم خيالات في إغماءة سكره...

بعد تلك المرة صار عبدو يرى الموت بشكل أقل وضوحاً... يرخي بظلاله عليه... يضع يده فوق يديه، ويقتلان معاً...

كأنه سيف يقتص به... وفي النهاية، سيقتص منه..

«تلك الليلة أنقذ عبدو حياتي، وسأرد له الجميل، مرات ومرات... لا بمشيئتي، بل بمشيئة الله..»

(باب ناجية)

أخبرني حسني بأنك عندما تكون فقيراً جداً، فكل شيء في حياتك يمضي من سيىء إلى أسوأ.

ففي الأسبوع الماضي مات معلّمه، عطّار الحارة، وقرر ورثته أن يحولوا دكان العِطارة إلى دكان بيع فاكهة وخضار، فصار بلا عمل يعيل به ابنته وأخته الأرملة.

ومع أن أخته تعمل قابلة لكنه هو يرفض رفضاً قاطعاً أن تتحمل هي مسؤولية منزله..

عندما كان يبحث عن عمل جديد يقيه العوز، أخذ المطر ينهمر كما لم يحدث من قبل، وهذا ما سبب له شعوراً إضافياً بالجزع، فقد غرق كيس البرغل الذي نشره على السطح ليجف، ولما كان هو وأخته خارج المنزل، وابنته ناجية رفقة عمتها، فلم يكن لديه متسع لرفع حفنة واحدة على الأقل وإخفائها.

والشيء الوحيد الذي استطاع عمله هو احتماؤه تحت سقف مدخل الجامع، بينما راح الماء البارد المنهمر من السماء، يغرق مؤونة بيته.

بالأمس أتمت ناجية اثني عشر عاماً من عمرها، وحمل نهر بردى دجاجتين وديكًا أهدتهم إليها عمتها لأنها تحب أكل البيض.

كان نائماً، ومع ذلك فإن هدير النهر المندفع جعله يستيقظ في الحال، وثب من سريره دافعاً لحافه عنه، ظن بأن سقف بيته القديم ينهار.

عاد لينام بعد قليل غير قادر على احتمال البرد في العراء، وقد اطمأن إلى أن الصوت صادر عن النهر.. لا عن تداعي منزله من حوله.

عندما استيقظ صباحاً، وتذكر بأنه عاطل عن العمل، وتذكر بأن أخته تعمل وهو لا، وأن ابنته ستجوع إن لم يطعمها، وتعرى إن لم يكسوها، ازدادت قتامة الصباح الغائم. هدير النهر بات يصم السمع، كأنه سيغرق المدينة المستكينة على ضفتيه،

بينما رائحة العفونة تأتي من الماء العكر.

ولما ذهب ليلقي نظرة، وجد ضفتي النهر غارقتين، والماء يحمل جذوع أشجار جرفها وأغصان كسرها، وارتفع مستوى الماء على الطريق القريب ونفذ إلى البيوت القريبة، التي رأى سكانها يمضون منها وهم يحملون ما يستطيعون حمله من متاعهم ليختبئوا في مكان بعيد لا تصل إليه فورة النهر وغضبه.

مشى نحو بيت أخته القريب، رأى أن النهر قد جرف شجرة النارنج التي تنمو خارج الباب، ويبيعون ثمارها الناضجة. دمعت عيناه، عمر الشجرة من عمر بيت أخته، ثلاثون عاماً أو ينيف، والشجرة الوحيدة التي عرفتها ابنته ناجية وتسلقتها، وبات الناس يتناقلون قولاً مفاده أن السماء غاضبة من ظلمهم بعضهم بعضاً، وستغرقهم كما غرق قوم نوح، وهم لا يملكون مثل سفينته.

وفي المساء أصبح ماء بردى أسود، كالليل المنعكس عليه، وأجمع الناس أمرهم ليصعدوا إلى تلة قريبة، يبتهلوا إلى الله لتكون سقياه رحمة، فلا تغرق ما بقي من منازلهم. ثلة من الناس كانوا يحصون الأضرار التي أحدثها فيضان بردى الكبير، كما أسموه لاحقاً.

ولما وقف حسني وأخته وابنته مع جموع البشر رأى الدجاجتين والديك وقد حملهم الفيضان معه، دجاجتين حمراوين وديكًا أبيض، بكت ناجية بحرقة لفراقهم.

شعر حسني بالذنب... كان عليه تحرير الدواجن من القن البدائي الذي صنعه من القصب وجذوع الشجر، لتؤي مثله إلى تل ما أو رابية، غمره الحزن، كان هو وأهله كهذه الدواجن، يحملها طوفان الحياة بلا هوادة، إلى الأماكن الأكثر قسوة وظلمة، في حين أن بشرًا آخرين ككامل آغا الجوخدار يمكثون قرب مدافئهم، يتناولون البطاطا المشوية والجوز المشوي، ويدخنون النرجيلة، ويتناولون حلوى السميد حتى ينتهي المطر، ويشعرون بالحزن لمفارقة أجوائه الشاعرية!

أما حسني وأمثاله فهم الآن فوق الرابية، قد تقضي عليهم ضربة برق، فتحرقهم كحبات بصل في مدفأة المتصرف.

كانت ناجية قد جمعت بيضتين في يومين من تحت الدجاجتين، أكلت واحدة وباعت عمتها واحدة بليرتين.

راحت ناجية تبكي على دجاجاتها، بينما كان المطر يبلل ثيابها التي التصقت بجسدها كبشرة ثانية.

احتضنها حسني وغمره عجز هائل، فقد كان وفي داخل نفسه، ممتن جداً لأخته على هديتها، فالدجاج يتكاثر بوفرة، وبعد أقل من شهرين تصبح الطيور الثلاثة مع عشرة صيصان على الأقل، قطيع صغير من الدواجن، تصنع لناجية رأس مال بسيط، يزيد ثقتها بنفسها وقدرتها على الكسب المشروع، بدل أن تهرب من المنزل، وتلتحق بخان ما لتصبح مومساً، كأمها..

تألم حسني لأجل ابنته، وقطيع الدواجن الخيالي..

وبقي الأمل الوحيد هو أن تأخذ ناجية (كار) القبالة وغسل الموتى عن عمتها..

كان حسني يرى في كل شيء حوله مصدر خطر يهدد ابنته، التي كانت تنمو مثل عود البان، تنمو ويبرز في صدرها نهدان كنهدي أمها، ثائران، ومتعاليان.

ستثير انتباه الرجال السيئين كأمها.

أخبر حسني ابنته بأن أمها ميتة، ويعيشان حياتهما على هذا الأساس. كان حسني يرجو من الله شيئاً واحداً، أن تموت زوجته بالفعل، فلا تفكر بالعودة لترى ابنتها، لا سمح الله، لتجرها معها إلى الرذيلة. ضاعت زوجته لأنه فقير جداً، وكذا فعلت نسوة كثيرات..

عندما صار حسني صديقاً لعبدو والتقى زوجته فوزية لاحقاً.. طلب منها أي خبر عن زوجته..

وعلم أنها على قيد الحياة، تدير خاناً في نواحي بكة، فجمع أصدقاءه وأخبرهم عنها بعد أن بصموا بالدم على وثيقة شرف بألا يفشوا السر، وبعدها طلب منهم أن يجتمعوا لقتلها.

رفض عبدو الفكرة، فزوجته غانية سابقة، وأخبر الرفاق بأنه سيراقب الطريق حتى ينجزوا مهمتهم، ليلتها شربوا جرة نبيذ كاملة، قبل أن يغيروا على خان بكة ويقتلوا كل من فيه.

وبينما كان عبدو يراقب الطريق غط بإغماءة سكر فأتت قوات الدرك وفر الرفاق بصعوبة، وقد أنجزوا المهمة التي أتوا لأجلها، ولكن حسني وقع في قبضة رجال الوالي، وأودعوه السجن..

وتساهلوا في الحكم عليه، لأنه قتل رجالًا ونساءً يبيح الشرع قتلهم في حال ارتكابهم الفعل الفاحش ووجود أربعة شهود.. وكانوا أربعة.. لكنهم قتلوا الحوذي صاحب العربة خطأً، ولذلك سجن حسني وقتاً طويلًا جداً

وفي أثناء إحدى محاولاته الهرب من القلعة أصيب في ظهره، وصار مشلولاً.

تولى عبدو مهمة إخبار ناجية وعمتها خبر اعتقال والدها، ثم خبر الإصابة التي صيرته مشلولاً...

وستلوم ناجية عبدو بسبب ما حدث مع والدها، وستكرهه لأجل ذلك أمداً طويلاً، وتحاول الانتقام منه في كل فرصة، متجاهلة تحذيرات عمتها:

- قبل أن تبدئي رحلة الانتقام، احفري قبرين: أحدهما لعدوك والآخر لكِ...

(باب كامل آغا ودرية خانوم)

قضى كامل الجوخدار جلّ طفولته يتدرج في أروقة أكبر قصور السلطنة العثمانية (طوب كابي)

فهو سليل أسرة تولّى رجالها ونساؤها -لوقت يصعب تحديد بدايته بدقة- مسؤولية تصميم ملابس أفراد الأسرة الحاكمة في الدولة العلية، وصناعتها.

لكن كامل آغا كان مختلفاً عن سائر أفراد الأسرة، فلم يملك حسًا فنيًا جمالياً ليتولى أمر تصميم لباس لسلطان أو أميرة، ولم يستطع بأي حالٍ تمييز أنواع الأقمشة بعضها عن بعض، بل كان إدخال الخيط في خرم الإبرة مهمة مستحيلة الإنجاز، فقلبه له أمانٍ أخرى.

بدأت عندما زار دمشق، وتعلّق بها، كأنها اسطنبول الصغرى، وعندما أراد السلطان تعيين مسؤول عن تجارة الحبوب بالشام كلها، تصدى كامل آغا الجوخدار للمهمة باندفاع قل نظيره، وحماسة معدية، ما جعله المرشح الأمثل للمهمة.

اندمج كامل آغا في مجتمعه الجديد بسرعة، فأتقن العربية، وبنى علاقات مع صفوة الخلق وأكابرهم، ساعده على ذلك صفاتٍ عُرفت عن جميع العاملين في القصر السلطاني، وأجلّها الأمانة والصدق.

وهكذا، وعندما أراد زيادة ارتباطه بحياته الجديدة، قرر الزواج من ابنة والي دمشق، وهذا ما وطد مكانته، وسهّل أمور تجارة الحبوب، وتوريدها إلى عاصمة الدولة العثمانية.

لم يكتمل صفو أيام كامل آغا، حيث خطفت حمى النفاس زوجته سريعاً بعد أن وضعت ابنتها، درية خانوم.

قضى موت زوجته الغالية، التي جمعت أسباب الجمال والدلال كلها، على

رجائه بأن يكون له صبي، يشبّ ليحمل اسمه ويتولى ملكه وأعماله.

وكان التفكير بالزواج بفتاة أخرى أمراً مستحيلاً بالنسبة إليه، فجميع المرشحات دون مرتبة زوجته الراحلة.

كانت درية تنمو بسرعة وتصميم، متنقلة بين أحضان المربيات والخادمات، يحنو والدها الآغا عليها، وفي عينيه لمعة حزن وشفقة ليتمها ووحدتها، ومن ستعوضها عن الأم؟

أما درية فلم تفتقد يوماً حنان أمها... فلا يمكن للإنسان أن يفتقد شيئاً لم يمتلكه أصلاً... كانت تلاحق والدها دائماً... تُلاحظ كيف يداعب أبناء العاملين عنده وضيوفه الكثيرين، يمنح صبيتهم المال والهدايا الصغيرة وكلمات التحبب.

كانت تنمو مثل نخلة، وتنمو داخلها بذوَر الرغبة بأن تكون ذكرًا، فضلاً عن أنها واحدة من أقوى فتيات زمانها وأجملهن، لتكون مسؤولة عن نفسها مسؤولية كاملة، وفي عمر صغير نسبياً.

وظّف لأجلها موظفة خاصّة تُدعى أسيل لتعلّمها تاريخ الدولة وعادات القصر وتقاليده، فمن يليق بابنة كامل آغا الجوخدار وحفيدة والي دمشق إلا أمير أو صدر أعظم؟ وأراد أن يجهزها لنصيبها ذاك.

أرادت درية أن تلبي رغبات والدها، كعادتها، أن تطيعه وتحترمه، لكنها لم تتخيل يوماً أن ترى في عينيه نظرات الهيام التي أخذت تراها كلما حضرت أسيل.

رأت والدها لأول مرة يدوس مناطق خطرة، فأسيل من مستوى اجتماعي يختلف عن مستواهم، ووالدها جلاخ، يسنّ السكاكين والأدوات المعدنية ليجعلها حادّة وصالحة، أما كامل آغا؟ ففرد محبوب في بلاط السلطان، ونديم دائم لوزرائه؟ يخطب ود امرأة من عامة الشعب؟

أبلغت درية خانوم مربيتها لتستغني عن خدمات أسيل، وتسلمها مبلغاً مالياً تعويضاً عن خدماتها... وفي المساء، عندما اجتمعت مع الوالد على مائدة العشاء، وقبل أن تتناول لقمة واحدة، رجته أن يكتفي بها من الأولاد، ولا يطمع بأكثر منها، وهي تعده أن تكون كجيش يقف خلفه، أن تنصره وتساعده وتتولى أموره، بدل أن يتزوج امرأة لا تليق بمكانته، فتتعسه وتهدم ملكه، وتعديه بفقرها وقلة حيلة عائلتها.

كانت هذه المرة الأولى التي تطلب منه ابنته أمراً

وعجز عن رد طلبها الذي حاكى شكوكًا بداخله تجاه أسيل... وحرم على نفسه الزواج.

كانت درية عند وعدها، صارت كالمنارة في دمشق، وصار منزل والدها مضافة لعلية القوم

فكانت تتقن اللغات والحساب وتتحدى معلميها، تهوى ركوب الخيل وتفوز في السباقات، تتولى مسؤولية إدارة قصر والدها وأعماله عندما يكون مُسافرًا. كأنها كاملة، كوالدها.

وصار السؤال الذي يشغل بال الدمشقيين والدمشقيات، من قد يتجرأ ويطلب يد درية خانوم ابنة كامل آغا الجوخدار للزواج؟

قلة من خيرة شبان بلاد الشام واسطنبول وفدوا إلى قصر كامل آغا ليخطبوا ابنته

طمعاً بكل ما قد يحمله الزواج منها من امتيازات، وقد جمعت الأسباب كلها والتي تجعلها أفضل فتاة قد يحظى بها الشاب، من جمال ومال وحسب وأخلاق، وكان الرفض جوابها..

والعمر يمضي...

حتى طلبها شهبندر التجار، المسيطر على سوق الحرير في أرجاء الدولة العلية كلها، لتكون زوجة ثانية...

ومتى كنتُ ثانية في أي شيء أيها الوالد العزيز؟ لطالما حجزت المقعد الأول في كل شيء! وأحياناً المقعد الوحيد! ابنة كامل آغا الجوخدار وحفيدة الوالي لن تكون الثانية في أي مكان!

همس لها:

- الموت خطف والدتك، لكنك كُنتِ أنسي من الوحدة، الوحدة وحش ينهش الروح.

- أتثق بابنتك أيها الآغا؟

- أكثر من ثقتي بنفسي!

وهذا كل ما تحتاج إليه الفتاة لتكتمل... ثقة والدها.

لم يغرها الزواج بأقوى تاجر في البلاد! كانت تريد أن تكون هي الأقوى والأكثر ثراء!

ولكنها تعيش في مجتمع يعيب قوماً يولوا أمرهم امرأة، وهي تؤمن بالله وشرعه، لذلك أخذت تفكر تفكيراً جاداً برجل تتزوجه، تمسك خيوط حياته، فلا يتحرك قبل أن يستشيرها، ولا ينام وهي غير راضية عنه، رجل من خيطان، يقف بينها وبين الوحدة.

رجل يمكن لها ان تستأمنه على ملك لا تفنيه حياة واحدة... رجل حمل الأمانة ولم ينأى تحت ثقلها؟

رجل تراه على الدوام..

برقت عيناها وتسارعت نبضات قلبها، ربما وجدته...

نادت خادمتها أم محمود إلى خان والدها كامل لتنادي المحاسب... عفيف النشواتي...

لبى عفيف طلب ابنة الآغا بأسرع ما يستطيع... وقف في حضرتها... يكادان يكونان وحدهما، اثنان والطلب المعلق ثالثهما...

كان عفيف رجلاً وسيمًا، يلفت نظر أي فتاة إلى مظهره البسيط، والمُعتنى به جيداً، من أسرة متوسطة الحال...

- تدري يا عفيف، أن الوالد آغا...

- أطال الله في عمره...

- آمين، يعجبه أمانتك، وصدقك، وحس المبادرة لديك لتسد أي ثغرة تطرأ على منظومة العمل، وهذه صفات الرجال...

ارتبك عفيف... لا يدري ما ترمي إليه... لكن فاتحة الحديث مُشجّعة...

- كامل آغا يستحق أن يفديه المرء بحياته.

- تهبه حياتك إذاً؟

- بلا تردد، يا خانم.

ابتسمت درية بسمة انتصار: أريد منك طلباً... كلمتين لا ثالث لهما؟

- طلباتك أوامر، درية خانوم.

- أن تتزوجني.

دارت الدنيا بعفيف النشواتي، ابن المرحوم نوري النشواتي، الذي عمل مكيسًا في حمام السوق، هل هو في حلم؟

تلعثم:

- هل سمعتك جيداً يا خانوم؟ أم أنها كلمات بلغة غريبة أسأت فهمها

شعر بالدماء تتصاعد إلى رأسه، تتسابق حتى كاد يغمى عليه، هل أحضرته إلى قصرها لتسخر منه وتسلي نفسها؟

- أتريدين مني أن أقف أمام كامل آغا الجوخدار، ولي نعمتي، وسيد رجال البلاد، لأطلب يد ابنته؟ أنا الواقف بباب الله ولا أرجو غير رحمته؟ أين الثرى من الثريا؟ أرجوكِ

- الرجل لا يخيفه شيء يا عفيف

- إنه أمر دونه الشارع، أن يطردني الآغا وينقطع رزقي ورزق أهلي الذين أعيلهم

- احزم أمرك ولا تعجز، والبقية تأتي.

(باب عفيف... قبل أن يصبح

«أبو نوري النشواتي»)

عندما خرج عفيف من بيت أهله في الصباح الباكر، تشيعه صلوات أمه ودعاؤها اليومي: «يا رب افتح لابني أوسع أبواب رزقك، واغرس محبته في قلوب عبادك، وارض عنه، فإني راضية»

لم يخطر بباله قط بأن ساعة الإجابة قد حانت..

هل قالت له الخانم ما قالته؟ أم أنها أحلام الظهيرة؟

كان يراقب العمال يرفعون أكياس الحبوب على العربات بذهن غائب. عينه معلقة على باب المنزول، وعقله بقي عند درية خانوم، وقلبه في عوالم الله عز وجل...

نظر إلى صديقه أبي سعدي، وقال بصوت غير ثابت: «أنت رأيت أم محمود وقد أتت تطلبني لأحضر بين يدي ابنة كامل آغا؟»

نظر إليه أبو سعدي مستغرباً وقد تغير حاله مذ عاد من القصر: «الجميع رآها... ما الذي قالته لك حتى انقلب حالك لهذه الدرجة؟» ودون أن ينتظر إجابة عن سؤاله أكمل: «هيا أيها الرجال، ثبتوا الأحمال جيداً...»

نظر عفيف إلى السجل التجاري بين يديه وتداخلت الارقام مع بعضها ببعض فوق الورق «البقية تأتي»

أنهى الرجال عملهم في الخان، ووقف عفيف يراقب باب المنزول... قلبه يطرق في سمعه طبول الحرب...

توقفت أنفاسه لحظة في حنجرته عندما أخذ رجال الحارة يخرجون من عند كامل آغا، وينطلقون إلى أعمالهم، سمع صوت صفير من داخله، جسده ينشد

الهواء، وقد نسي أن يتنفس...

اصطدم أخوه شريف به وهو خارج من الخان ليلتحق بصحبه، ونظر إليه نظرة عابرة: «أراك في المساء»

- إذا بقي حياً، ولم يقطع كامل آغا رأسه لتطاوله...

للحظة فرغت الساحة وشعر عفيف بأنه الرجل الوحيد على وجه البسيطة

مشى بخطوات مهتزة نحو المنزول ووقف ببابه ينظر إلى الجبل الجالس في صدر المجلس

رأى عفيف شفتي رب نعمته تتحركان ولم يسمع ما قاله

مشى نحوه كأنه مُسير، لا يشعر بشيء ولا يرى شيئًا آخر غير الآغا...

وقف بين يديه... وصلت إليه كلمات كامل آغا بعيدة... كأن أذنيه محشوتان بالقطن...

- أنهى الرجال نقل الرزق؟

أومأ عفيف برأسه بنعم ولم يعقب، عقد الآغا حاجبيه، فاستنفرت أعصاب عفيف وفقد شجاعته كلها...

- هل أنت مريض؟

هز عفيف رأسه بلا وتدبر قولها: «أنا بخير كامل آغا»

نهض كامل آغا عن المقعد واتجه إلى الباب وهو يضرب بعصاه الأرض كأنه يضربها على رأس عفيف...

لقد خذلها... شعر بأحماض المعدة تتكاثف بداخله، وأسرع يخرج من المنزول نحو البحرة في ساحة الجوخدار... وتقيأ قربها... تحامل على نفسه، ونظر إلى السماء... رأى وجهها، مجللًا بالجمال، صفحة وجهها صافية، تشع من عينيها

النجوم، جمعت صفات الحُسن في طلعتها البهية، فهل سيكون تردده غيمة تعكر صفو سمائها؟

على مائدة العشاء في قصر الآغا جلست درية بصحبة والدها يتناولان الطعام ويتحادثان، وهي تنتظر منه حديثاً معيناً...

- كل شيء بات جاهزاً للسفر إلى الأستانة، لأرى الصدر الأعظم، وأثبت أمر عقود تجارة الحبوب لعامين مُقبلين مع الوزير، وأصل رحمي هناك، غداً الانطلاق ليلاً، او بعد غد في الصباح...

- السفر نهاراً أفضل بكثير أيها الوالد العزيز، عيون النهار مبصرة، أما عيون الليل فعمياء، تواري المتربصين..

- بحسب تيسير المولى عز وجل وتوفيقه...

- ونعم بالله العلي العظيم...

لحظات صمت مشحونة تبعت كلمات درية... التي أرادت التجلد والصبر، لكن السفر يطول شهوراً عدة و...

- هل حدث شيء آخر تريد أن نتكلم به؟

- لا...

أكمل الآغا تناول طعامه بصمت، في حين عجزت درية عن تناول لقمة إضافية.

كيف يجرؤ على العصيان؟ كيف يفكر بالرفض أو المماطلة؟ أرجل هو... ليفي بعهوده أم مراهق يلبس هيئة الرجال؟

لكنها تعرف أمراً واحدًا، بأنها إذا أرادت فعل شيء ما، فلا يحول بينها وبينه إلا الموت!

- إذاً سأنزل إلى الخان في الغد، لأرى إلى أين وصل العمل، لأكمل الإشراف

عليه في غياب حضرة الوالد...

- بارك الله بك...

ابتسمت لوالدها بينما الغضب يأكل داخلها، حتى شعرت بأن الحرائق تنهش برود أعصابها...

أخذ عفيف يمشي، أراد أن يختلي بربه وعقله، عقله الذي يعجز عن استيعاب أمرها.

أقصى طموحه أن يحيا حياةً كريمة، يعيل أمه الأرملة وأخته، ويتابع أمور أخيه حتى لا يحيد عن الصواب...

وصل إلى مقام الشيخ الأكبر، محي الدين بن عربي، نأى بنفسه في زاوية إلى يمين المقام، حيث يستقر جسد الشيخ في مثواه الأخير...

Telegram:@mbooks90

صلى كثيراً، حتى تفطّرت قدماه، ودعا الله حتى جف لسانه...

- إلهي؟ أحلم هو أو أنه حدث حقيقة؟ هل تكون مزحة ما؟ أم مؤامرة لرميي في الشارع وانقطاع رزقي؟ نعم الرب أنت وبئس العبد أنا... أنجدني وتولني كما تتولى الطير في أعشاشها، والأجنة في ظلمات أرحامها...

لم يعلم عفيف متى نام أو استيقظ...

لكنه رأى نفسه في روضة خضراء تمتد في الأفق حتى تلاقي زرقة السماء، نور الشمس مشرق ودافئ، مع أنها ليست في السماء...

لكنه رآها فجأة، تقترب منه وتغمره، تمتطي ظهر حصان أبيض...

إنه هو...

- مولانا...

- امتطِ دابة الله، سبحانه، ما رزقك الدعاء إلا وسبقته الإجابة، لكنه يحب العبد

اللحوح...

اعتلى عفيف ظهر الفرس، وانطلقا في رحلة المعراج نحو السماوات...

صدح صوت الأذان من حوله...

«الصلاة خير من النوم»

استيقظ باكياً، الدموع على عرض خديه، وقد لاقى حبيبه في المنام..

خر ساجداً يشكر الله، ثم أدى الصلاة، وانطلق إلى الخان...

عاد إلى الواقع، يكادُ يجن من ثقل رأسه، العمل هو الوحيد الذي يقي الإنسان شطحات الجنون

بدأ يعمل بكدٍ، حتى غرقت مخاوفه فَي عرق التعب، وكادت تموت، وعندما حضر بقية العمال، وجدوه وقد أنجز وحده عمل عشرة رجال...

أخذ شريف يراقبه بحيرة، عادة يبقى قريباً منه، يراقب عمله ويشرف عليه، كسيف مسلط على رقبته، لكنه اليوم مهموم، وقد قضى ليلته خارج المنزل، هل نام في الخان؟

اقترب شريف من أخيه وأمسك بذراعه وشده إلى ركنٍ بعيدٍ عن الأعين والأسماع:

- ما خطبك؟ تعمل كالثور... وتراقب ديوان الآغا والمنزول... أين نمت البارحة؟

نظر عفيف في عيني أخيه...

- درية خانوم؟

- مالها؟

أخبره باختصار، احتاج إلى إخبار أحد ما، كيلا يتردد صدى طلبها في داخله

حتى يصيبه بالجنون

اتسعت عينا شريف حتى كادتا تندلقان من محجريهما!

- هل جننت؟ أم هو مس من الجان؟ انس الأمر تماماً كأنه لم يكن! أو أنه كابوس أثناء نوم العصر! هكذا أمر سيجعل الآغا يرمينا في جهنم لو علم أنك تفكر بابنته مجرد تفكير!

انطلق شريف بعد أن هز عفيف هزة علّه ينفض تلك الأفكار المجنونة عنه، بينما علت وجهه نظرة يصعب تفسيرها، وقد احتدم بداخله الحوف والغيرة ورغبة كبيرة بالقتل!

لحق عفيف بأخيه إلى الخان...

- يا ولد!

سمع نداءها قبل أن يراها، استدار ليواجه جلالتها وشعر بالأرض تميد تحته

لم يجبها... هرب سريعاً بينما أشاحت نظرها عنه، واتجهت إلى ديوان والدها

كان شريف يراقبهما وقد علت فمه ابتسامة شامتة... وقد اتضح له بأن أخاه يهلوس برؤى لن تحدث...

وقف عفيف في محراب الوقت، صلى أن ينقضي سريعاً، ليثبت لها رجولته...

كاد القلق يلتهم كبده وقد صار وجهه أصفر اللون..

وعندما علم بأن الآغا صار وحده، خرج نحو طالع الماء، غسل وجهه وثبت تطاير شعره، وحاول استجماع أفكاره.

عد خطواته حتى وصل إلى الآغا، وقف في حضرته، تكلم فوراً حتى لايبتلع لسانه من الخوف

- يشرفني ويشرف عائلتي كلها، أن أتقدم بطلب كريمتكم للزواج على سنة الله

ورسوله...

كامل آغا الجوخدار رجل حصيف ومتزن، لم يفقد أعصابه أو عقال لسانه مذ كان طفلاً، ولكن مشاعر الصدمة ارتسمت على وجهه...

- من أين استحضرت القوة لتقول هذه الكلمات يا عفيف؟

نظر إلى السماء: من الله، سبحانه و تعالى..

- ونعم بالله! قادر على إنطاق الحجر، لكن زمان المعجزات ولّى، فمن يقف خلفك، ويدفعك لتقف أمامي وتطلب أمراً يعجز عنه الآغاوات؟

- أطلب الحلال أيها الآغا، ويسندني عطف حضرتكم، لطالما كنتم أهل الحلال والمعروف، تقفون في وجه الحرام والمُنكر، وتقومون على تطبيق شرع الله.

اختلطت مشاعر الآغا عليه، بين صدمته لسماع كلمات رجل يعمل عنده، ولا يملك غير سقف يظله وعائلته، وبين اعجابه بجرأته، وربما جنونه...

لكن وراء طلب موظفه سر لن يهنأ عيشه حتى يكشفه...

- بالطبع حلال الله بين، وواجبي أن أخبر ابنتي بأي طالب للزواج، وسأخبرك ردها...

خرج كامل آغا من المجلس بخطواتٍ متعجلة... وقد انتقل إليه قلق عفيف...

بعد خروج كامل آغا، ذابت ركبتا عفيف وانهار على الأرض... لقد فعلها! أدى الأمانة وحفظ الكلمات التي وعدها بها... شعر برغبة كبيرة بالبكاء بين يدي أمه، لكن عجزت ساقاه عن حمله، انهار مستلقياً على الأرض، غارق في عرقه وما بقي من تعقّله، كأن عاصفة رعدية تهب في قلبه، مشاعر خفية يتبعها حفنة آمال مسحوقة...

سمع صوت عبدو الجلاد... وهو يزعق ببغله ليوقفه...

- عبدو!!!

ناداه بأعلى صوت، لكن الصوت لم يتجاوز حنجرته، كأنه في حلم!

دخل عبدو العربجي المنزول دون أن يقرع الباب، رأى عفيف على الأرض، فقفز مسرعاً نحوه وأسنده ليقف...

- ما حالك يا ابن النشواتي؟ أي داهية دهتك لتستلقي هكذا؟

ضحك عفيف ولم يعرف كيف يرد... لن يبلغ أحداً... حتى لا يشمت الناس بخيبته إن كانت درية تكيد له...

مشيا ليجلسا على حاجز البحرة، وعب عفيف من سبيل الماء حتى شعر بقدميه فوق الأرض ورأسه قد كف عن الدوران...

- كأنك لبيت نداء حاجتي إلى سند بعد الله من غير أن أصدر صوتاً

- ما وراءك يا زميل؟

همس:

- ربما يفتح الله لي قريباً أبوابًا من سعة فضله، وأحتاج إلى رجل مثلك لينضم إلي في عوالمي الجديدة... لنصعد معاً أدراج الحياة...

- لا أطيق الألغاز، فوضح مقاصدك، فأنا معجون بسوء ظني بالعباد..

- ستعلم وحدك إن شاء الله، وقبلها أريد منك أن تنضم إلى طاقم العمل في الخان وأن تنضوي تحت رايتي...

وقف عبدو بكل أنفة.. العربجي لا ينضوي لواؤه تحت راية مخلوق، أياً كان!

وقف عفيف والصدق يتقاطر من سحنته: أحتاج إليك وأنت غني عني، فلا تخجلني...

- هل ستصير واحدًا منهم؟

يشير عبدو برأسه نحو المنزول... وينظر عفيف في الاتجاه ذاته...

- لن أنسى أصل جذور شجرتي، مهما امتدت فروعي وأغصاني...

نظر إليه عبدو ولوى شفته:

- تعجبني أيها النشواتي، وعندما أقرر أن آوي إلى ركنٍ ما، سيكون ركنك... لكن ليس الآن..

كان الآغا في مقصورته، تتحرك حوله درية والخادمات لينهين ترتيب حاجياته وأمتعته اللازمة لسفره المرتقب...

كان يحدج ابنته بنظراتٍ غامضة دون أن تُلاحظ... حتى التقطت عينيه أخيراً... فحانت من عينيها التماعة أمل...

صرفت الخادمات واقتربت من أبيها...

- عساك بخير يا والدي... أي هم تحمله ليجعلك ساكناً بهذا الشكل؟

نظر في عينيها طويلاً، انتقل إليها قلقه...

- أجدني لأول مرة نادم على موافقتي مشورتك بالبقاء دون ولد يرثني ويرث آل الجوخدار، وقد تطاول العامة علي!

انتفضت واقفة:

- ومن يكون؟ حتى تمحوه ابنتك... جيشك... عن وجه الارض وتجعله تحت ترابها؟

أشار لها بيده لتجلس:

- عفيف... المحاسب في الخان... تخيلي؟ طلب يدك للزواج! أي قوة...

- موافقة!

تتسع عيناه بفهم مفاجئ...

- أنت التي خططت لهذا كله...

- إنه المناسب يا أبي... صادقٌ وأمين... لم يطمع يوماً بمالك، ولم يحك المكائد ليسيء إلى جاهك... سيكون نعم السند... والصهر ولدٌ... أعدك أن يكون خير إضافة إلى أسرتنا! وتعرف درية قلبك، عندما تعدك... تفي بوعودها...

يعرف كامل آغا ابنته جيداً، فهي تجسيد حي لمعاني العناد، وعندما تقرر أمراً، فلا شيء يمكن أن يجعلها تحيد عنه، ولن يبتزها عاطفيًا بالتأكيد، أو يلوي ذراعها بكلام قاسٍ يمكن أن يحفر هوة بينهما.

هذه حياتها، وهي من ستعيش برفقته هذه الحياة، قرار مصيري وحدها تتحمل تبعاته، فضلاً عن أنها أقوى من أن يقهرها رجل، أياً كان...

- ليكن ما تريدين...

- إذاً لي رجاء يا أبي أن تبلغ عفيف أفندي بموافقتك قبل سفرك، على أن يتم الزفاف بعد أن تعود من الأستانة سالماً غانماً، فتكون فرصة لأفراد العائلة ليرافقوك فيشاركونا الفرح...

أيقن بأنها خططت لأعوامها المقبلة، ربما اختارت أسماء الأولاد الذين ستلدهم، وما الذي سيفعلونه في حياتهم، ومن سيتزوجون...

ابتسم ارتياحاً...

في الصباح التالي وقبل سفره، طلب كامل آغا من عفيف النشواتي الحضور إلى ديوان الخان...

كان الآغا يقف أمام مكتبه...

وقف عفيف خلف الباب ليستجمع قوته، لا سبيل للتراجع الآن، مهما كان قرار الآغا...

- اقترب...

أمره الآغا، ووقفا متقابلين...

- تعلم بأني مسافر إلى الأستانة، اليوم إن شاء الله، عادة يبقى كرسيي شاغراً، يمنع الجلوس عليه، لكنك صهري، ومن يؤتمن على العرض، يؤتمن على ما هو أدنى، ابنتي وهذا الرزق، بأمانتك، إلى أن يأذن الله بلقائنا من جديد...

ينكب عفيف ليقبل يدي كامل آغا وعباءته، قبل أن يسجد لله شاكرًا وهو يلهج بحمد الله والثناء عليه...

يبتسم كامل آغا الجوخدار في وجه صهره العتيد ويشير برأسه ليجلس خلف المكتب على كرسي الآغا قبل أن يخرج...

وبعد وداع الرجلين، وخلو الديوان، يتجه عفيف ببطء نحو الكرسي، يحفه صوت حافري راحلة مولاه محي الدين بن عربي الذي شرف أحلامه بزيارة، وبارك حياته عندما مر بخواطره في عوالم الغيب...

- لنرتفع معاً...

جلس عفيف على الكرسي... وحلقت روحه في فلك الرضا...

...

راحت عينا شريف تراقبان أخاه، وهما تتقاطران حسدًا، وهمس من بين أسنانه «كان يجب أن يكون هذا الكرسي لي أنا»

وبالفعل يستولي شريف على ملك أخيه لاحقاً... وبكل وسيلة يحقق ذلك، حرام كانت أو مشبوهة

تم زفاف عفيف على درية خانوم سريعاً في زفاف مهيب حضره علية القوم

وصار الجميع يناديه، عفيف آغا...

وعندما صار عفيف وزوجه تحت سقف واحد، بين جدران أربعة وخلف باب مقفل، عجز عن لمسها...

كيف يلمس الرجل الشمس؟

بعد أيام صارت درية حائضاً، كانت تتألم بشدة، بدت ضعيفة بلا حول، فمكث عفيف قربها يساعدها لتشرب شرابًا ساخناً وتبقى دافئة... نبضت بداخله مشاعر الرجولة... لم يعد عفيف النشواتي محاسب في خان والدها! لقد صار زوجها...

واحتدمت نظراتهما ليلة بعد ليلة... كللاها باتمام الزواج...

كان عبدو العربجي أول رجل رآه عفيف عندما خرج من قصر الآغا بعد الزفاف

- مبارك... إن كان من رجل يستحق نسب الآغا ومصاهرته، فهو أنت

- بارك الله بك... وأرجو أن تبقى معي سنداً، فأنت تعلم أن مقامي هذا تكليف قبل أن يكون تشريفاً، وإن لم أشتغل في طرق الخير، ستشغلني طرق الشر وحدها.

- لكل أجل ميعاد يا... ماذا أناديك؟ عفيف أفندي؟ الآغا عفيف؟

- عفيف... بلا ألقاب، ولو ناداني أهل الأرض كلهم، بالآغا، أو الأفندي... أو الباشا، لكني أريد أن أبقى عفيف في عينيك، تصدقني عندما يحابيني الناس، وتفرق لي الأمر عندما يختلط علي...

- لماذا أنا؟

- لأني أعلم قيمة الرجال؛ وأوقن بأن في داخلك رجلًا بأمّة، وسيكون لك شأن عظيم...

نظر عبدو في إثر عفيف بعينين متسعتين، فالآغا لم يقل نبوءته تلك بسهولة، بل نطقها بجسده كله، كأنه يرى من غيب المستقبل ما لم يره غيره، وارتجفت أوصال العربجي خشية من غيب الأقدار.

عاد إلى بيته وهو يحمل كلمات عفيف فوق قلبه كحمل ثقيل بحجم الحارة كلها...

ولوقت طويل دفن تلك الكلمات في صندوق أسود وفي جزيرة مهجورة داخله... فهو سكير ومقامر، زرباوي وحشاش، ينفق أمواله بين سيقان النساء، ولا يريد أن يكون أكثر من ذلك...

(باب أسرة عبدو)

لكن الكلمات من أقوى المخلوقات، تقتل ما لا تقتله أعتى الأسلحة، وتشفي ما تعجز عنه أقوى العقاقير، وهكذا أخذت تنمو بثبات داخل ذلك الصندوق الذي نسيه عبدو، وكلّما قابل عيون أبنائه شعر بضجيج داخله، كأن تلك الكلمات تريد الخروج...

كان يرى في عيني ابنه لطفي الخوف وفقط، كان ابنه يخاف من كل شيء يخصه، من اللحظة التي يعود فيها إلى البيت من عمله، ومن شنكل العتالة الذي لا يفارق يده، ومن بغله وصوت عربته... كان يعجز عن خوض أي حديث مهما كان مختصراً مع ابنه، فكلما خاطبه أو سأله سؤالاً، كان يجيب بتأتأة حتى تستغرق كلمتا (نعم ولا)، وقتاً بحجم الهوة بينهما، حاولت فوزية أن تبعث به إلى الكُتاب، عسى أن يتبارك لسانه بالقرآن، وتنفك عقدته، ويتحسن نطقه، ولكن ذلك لم يحدث، بل طرده الشيخ واتهم عبدو بأنه يريد أن يرمي بلاءاته على الغير، بدل أن يصبر ويحتسب، وهذا ما جعل عبدو ينتظر خروج هذا المدعي من بيت الله، ليضبعه ويحشر لسانه بين فكيه ثم يضربه على رأسه، حتى يصير ألثغاً، وعندها ربما يتفهم شعور إنسان آخر لديه صعوبة في النطق، وأوكل إلى كرمو أمر تحفيظ ابنه القرآن، وبالفعل بدا الصبي أكثر هدوءًا، ومع كل آية كان لطفي يتماسك أكثر، ويقل خوفه من أباه، لكن لم يختف الشعور تماماً، ربما ورث لطفي خوفه عن أمه...

فقد كان عبدو يضرب زوجته بشكل يومي، بالذات عندما يعود إلى البيت ثملاً، فيضربها ثم يجامعها وينهمد فوقها بينما جسدها يهتز بالبكاء...

وعندما تمنعه عنها يتركها ويذهب إلى الخان يأوي إلى نسوة لا يملكن رفضه بعد أن يدفع ثمن ليلتهن...

اختلط عليه الأمر في إحدى الليالي، كان ثملًا إلى درجة العته، وحمل امرأة

إلى منزله في ليلة ماطرة، وضاجعها في فراش زوجته، ومنذ ذلك اليوم يرى في عينيها قرفها منه، وخوفها مما هو قادر على فعله. وكرهها له.

كان يراقبها دائماً، يظن أنها ستعود إلى حياتها القديمة كلما ضاقت عليهم الحال، وفي أحد أيام منتصف الشتاء، عندما صار العمل قليلاً وشح رزقه، عاد إلى بيته ولم يجدها، صب جام غضبه على رؤوس أولاده، وخرج يبحث عنها في الحارة البعيدة حيث الخان، تعارك مع حارس الخان، والخانوم التي تديره، ومع بعض الزبائن المخمورين، لكن أياً منهم لم يخبره عن مكان زوجته، عاد إلى بيته ليجهز نفسه في رحلة للبحث عنها في جميع خانات بلاد الشام، فوجدها في الغرفة تصلي وسمعها تطيل الدعاء إلى الله كيلا يجوع أولادها، وألا يُعاقبهم بسبب أبيهم وأفعاله. يومها أذاب الخجل إهتياجه كله. وتعاظم شعوره بالخزي لدرجة أنه طلب من فوزية أن تصفح وتسامح... لكنها أبت، واختفت من حياته بعدها، من غير أن تهبه الغفران...

أما زهرة وحسنية فورثتا عن أمهما جمال وجهها، ويناعة جسدها، كانتا تمشيان بطريقة جذابة، وتمتلكان من النعومة والنضارة ما جعلهما كوردتين شاميتين...

فرض عبدو عليهما العمل في سن مبكرة، كيلا تبقيان مع زوجته، فتبثهما أفكار العهر والفجور، فيحبب إليهما المال السهل، وتهربان إلى خان ما، لتصيرا غانيتين...

(باب أم محمود)

عندما وُلدت درية، ولدت خادمة أمها ابنة أيضاً، أسمتها سلوى ونذرتها لخدمة أسرة كامل آغا الجوخدار، الذي وقاها وابنتها اليتيمة ذل السؤال...

رفض كامل آغا النذر، فالطفلة حرة لتقرر مصيرها كيف شاءت، كانت درية وسلوى تكبران معاً، لكن ابنة الآغا تصبح خانوم، وابنة الخادمة تصبح خادمة... ولا يمكن أن تستمر صداقتهما...

تزوجت سلوى عندما بلغت السادسة عشرة من عمرها، وكان زوجها مزارعًا في حقول الآغا، رزقهما الله صبياً أسمياه محمود... ونسي سكان قصر عفيف آغا النشواتي أن اسم كبيرة الخدم سلوى، وصارت أم محمود...

أذنت درية لأم محمود بأن يرافقها ابنها إلى القصر ليلعب مع زمرد...

كانت الطفلة جميلة كاسمها، تبدو كملاك صغير يرفل في باحة القصر بأثواب تُجلب لها خصيصاً من الهند، فبشرتها حساسة، لا يريحها إلا ارتداء الحرير... كانت كشمس صغيرة تنير قصر الآغا ويدور محمود في فلك دفئها ولُطفها، تُقاسمه الحلويات وتهديه ألعابها وتحتمي به من إزعاج اخوتها الثلاثة، نوري وجمال وحسن... يسحر عقلها الصغير بقصص أولاد الحارة ومغامراتهم، ويرسم لها عوالم العامة التي لا تعرف عنها أي شيء... قالت له مرة أنها تحب اللعب معه وصحبته أكثر من حبها للعب مع إخوتها، بعدها منعت درية خانوم، نديمة طفولتها أن تصطحب ابنها معها...

- أرسليه ليعين والده في الأرض...

وافترق محمود عن زمرد، حزنت بشدة في البداية، ثم تناست الأمر بعد أن عينت لها والدتها مُعلمة لتلقنها أصول القراءة والشعر والآداب العامة...

لكن زمرد لم تكن مثل أمها، فلم تكن مضطرة لذلك، أن تكون رجلاً وامرأة معاً،

وهي تملك ثلاثة إخوة. لم تر درية صورة والدها في أي واحدٍ منهم، خلا ابنها الأصغر، الذي يناديه كامل آغا «الشاطر حسن».

(باب الآغا الجديد)

مات كامل آغا الجوخدار وهو نائم، من غير أن يعاني أي آفة في جسده أو اعتلال في صحته...

تماسكت درية قرب سريره...

حملت عباءته ولحقت زوجها إلى مجلس الرجال...

فتحت الباب وتقدمت وألبسته العباءة وصار اسمها عباءة النشواتية، وبذلك علم الجميع بأن كامل آغا الجوخدار قد مات، وخلفه صهره العتيد، عفيف آغا النشواتي وصار المتصرف بكل شيء أورثه كامل آغا ابنته الوحيدة.

عم الحزن الشام كلها لرحيل الآغا، لما اتصف به كرم وعدل...

أما شريف النشواتي فقد غرق بالحزن لسبب مختلف، وقد صار أخوه الآغا، صاحب الأمر في المنزول والمسؤول عن حياة السكان وشؤونهم في الحارة، والجميع يحترمه ويجله ويحبه... وقد عيّن عبدو ليكون ذراعه اليمنى ومن يتولى تنفيذ أوامره بما يحقق ازدهار الحارة واستقرارها

فقد استحق عفيف مناصبه الجديدة كلها... وكان خير خلف لخير سلف...

كان شريف يراقب عفيف بعين تقطر كراهية... مع أن عفيف قد رفع منصب أخيه، وجعله مدير الخان والمشرف على عماله، وكان يطلب منه أن يرافقه في رحلات عمله ومتعته كي يقدمه لأكابر القوم وساداتهم، كان يحب لأخيه ما يحب لنفسه، ويكره لأخيه ما يكره لنفسه، ويغدق زوجه وابنه بالهدايا والعطايا، لكن إحسانه كله كان كماء مطرٍ يهطل على حقل من أشواك، فكان عطاء عفيف يغذي كراهية أخيه ومقته ناحيته...

وعندما صار أبناء عفيف يرافقونه إلى أعماله، كأنه ينوي تسليمها إليهم من بعده، عقد شريف العزم... فلن يخلف عفيف غيره، ولو اضطر لقتله وقتل صبيانه

كلهم... درية هي العثرة الوحيدة في طريق شريف...

كان يعلم بأن أخاه ليس أكثر من عفيف النشواتي، محاسب في خان كامل آغا الجوخدار لولا درية...

فأخذ يحرض عفيف على زوجه بأساليب غير مباشرة، فيوسوس له عن استبداد درية، وكيف أن الجميع يظنها المتصرفة بكل شيء، وأن عفيف لعبة فحسب تحركها كيف شاءت، ويجبر ابنه حمزة كي يلتصق بعمه كظله ويدفع أبناءه عنه، وحاول أيضاً أن يستميل عبدو ناحيته، لكن عبدو كان قد اكتشف حقيقة شريف النشواتي وطبيعة معدنه قبل وقتٍ طويل...

وبعد كثير من المحاولات والوسوسات، أخذ عفيف ينظر إلى زوجه بطريقة مختلفة، مع أنه حاول طرد تلك الخواطر...

وكي يضمن شريف نجاح خطته، خطب زمرد لتتزوج حمزة، ووافق عفيف رغم معارضة درية التي لم تشأ كسر كلمته في حضرة الرجال...

ولكنها صارت تأخذ طرق الحيطة والحذر في تعاملها مع شريف، وقد فهمت لعبته...

حاولت جعل عفيف يرى ما تراه، وأن تبين له خطط أخيه، لكن شريف صار كالشبح بينهما، حاضر في أفكار زوجها حتى لو غاب جسده...

ثم صار شريف يحرض نوري وجمال على أمهم، يسخر منهم بأنها تحب أخاهم الحسن فقط، ولا تحبهما... وكان سلوك درية يدعم تلك الادعاءات...

فقد كان تكرر:

- حسن يشبه والدي كامل آغا الجوخدار رحمه الله.

ويرد عليها عفيف:

- الحياة ستجعل عودهم صلباً. وتصقلهم التجارب. فلا تنمي شعور الغيرة من بعضهم في قلوبهم. ذاك ما سيهدم بنيان حياتهم...

لم تكن الغيرة ما هدم بنيان حياتهم! بل ربما التكبر!

فالخانوم خسرت اثنين من أولادها لمصلحة الخدم!

فسوف يقع حسن في حب حسنية ويتزوجها ويهرب معها إلى الدولة التي سيقيمها والدها بعد عمر طويل

أما زمرد وبعد أن تزور أمها أمر موتها ودفنها، وتتدبر أمر إرسالها خارج الحارة كيلا يعلم أحد باصابتها بالمهق، وكيلا تتزوج ابن عمها، ستجتمع مع محمود من جديد، فيتزوجان ويهربان معاً إلى عالم وردي لا يعلم مكانه أحد!

ثانياً - الظلم

(باب شريف)

انتهى عهد الآغا عفيف النشواتي تماماً كما بدأ، بشكل مفاجئ وسريع ونهائي، فمات على فراشه كما حدث لحماه من قبله، تاركاً الأمور كلها معلقة على جدران الاحتمالات.

فوقفت درية عاجزة عن تعيين خليفة لزوجها، فنوري وجمال وحسن ما زالوا غير مؤهلين لتولي مهمة كهذه، فنوري تتحكم شهواته بعقله، فيتخذ قراراته وفقاً لأهوائه، وعلاقته بزوجته وردة يسودها التحفظ والانعزال، خصوصاً أنها لم تلد له صبياً ليثبّت مكانته في العائلة، ولهما فقط اثنتان من البنات، فضلاً عن أنه يشكك بنيات الآخرين مهما كانت تصرفاتهم معه، وهذا لا يؤهله ليكون قائداً ناجحاً، ويغالي في سريته وتكتمه ما يجعل التواصل معه صعباً والتفاهم معه شبه مستحيل، والأخطر من ذلك أنه تتقد في عينيه نظراتٌ انتقامية تصبغ تصرفاته بصبغة سلبية، أما جمال فهو متزوج من عفت والتي تراها درية كمصدر تهديد، فعفت ابنة محمد آغا عاشت حياتها متنقلة بين الشام والأستانة، داهية، صنعت من زوجها رجلاً مغروراً، يحب نفسه إلى درجة مرضية، تجعلهما يتبارزان بالعناية بمظهريهما، ومع أنه يميل لتأدية المهام ويسعى للكمال، لكنه عاجز عن تقبل أي نقد، وهذا ما يجعله شخصاً هشاً، كانت وردة وعفت كلتاهما حامل، كأنهما في سباق، والتي تفوز بالصبي، تهدي زوجها منصب وريث عفيف آغا النشواتي، ومن يحق له إدارة أمور الحي، ولكن لدرية رغبات دفينة، بأن تجعل ابنها الأصغر حسن خلفاً لوالده، وأن يتزوج ابنة المتصرف، ما يثبت مكانته لدى الباب العالي وتتوسع تجارة الحبوب وتزدهر، لكنها لم تكن تعرف أكبر سر في حياة ابنها المحبوب، أنه الأكثر شبهاً بها، فكما اختارت الرجل الذي تزوجته مع الاختلافات والفروق بينها وبينه، فقد فعل هو الشيء نفسه، واختار زوجته تبعاً لأحكام قلبه، بدل أن يتبع أحكام أمه كما فعل أخواه...

كان موت عفيف آغا النشواتي بداية لصراع بات مُعلناً على جبهات عدة، فقد

كانت نوايا شريف مكشوفة لزوجة أخيه. وهكذا أخذت احتياطاتها، ورفعت حصون الحذر في وجه الأخ الضال، فهي لن تسمح له أن يظن لحظة واحدة بأن الأملاك هي أملاك زوجها رحمه الله، بل جميعها أملاك والدها الراحل كامل آغا الجوخدار،

وهكذا، وبينما كانت درية تجهز لعزاء زوجها ظاهرياً، طلبت من عبدو العربجي، مراقبة الخان والمنزول، ومتابعة تصرفات شريف عن كثب، فهو استغلالي لأقصى درجة، خبير بالتصرفات الخسيسة والأفعال الدنيئة...

فعندما كانت وفود المعزين تُسرع إلى قصر درية خانوم لمواساة عائلتها بمصابهم الجلل، كان شريف يحاول توظيف الظرف لمصلحته، وقد تجاوز حزنه على أخيه وشفقته على أولاده قبل وقت طويل...

فأرسل رجاله إلى الخان ليسرقوا محتويات الخزنة قبل أن يواري جثة أخيه التراب، لكن عبدو كان جاهزاً ليتصدى لمحاولة السلب تلك، وقد استيقظت بداخله ذاكرة قديمة عن الرجل الذي كانه، حين اعتاد الناس على الاحتماء منه، والآن يطلبون منه حماية أرزاقهم. التوت شفتاه بابتسامة ساخرة وقد لمس بنفسه أن بعض الأشياء لا تتغير بالفعل، فلا زال قتل الرجل أسهل عليه من... تردد لحظة قبل أن يحشر الشنكل في عين السارق ليخترق مخه، ثم عاد وضرب بقوة أكبر، فقتل أحد الرجلين وترك الثاني يهرب، ليكون رسالة مبطنة وجهها إلى شريف كيلا يكرر محاولته، حمل المسروقات والجثة واتجه ليخرج من الخان، فعلق جثة السارق على الباب، واتجه إلى قصر درية...

عندما وصل إلى القصر تردد لحظات قبل الدخول وهو يسمع صوت المُقرئ يتلو آياتٍ من الذكر الحكيم في حضرة المعزّين، لقد عمل مع الآغا أكثر من خمسة عشر عاماً، كان نعم الرجل، ولم ير منه إلا كل خير، فاستأمنه عفيف على أولاده وعرضه، فكان يعامل الصبية كأولاده، ولاسيما حسن، إذ علمه أصول العراك، وكيفية استخدام شنكل العتالة ليحمي نفسه، ودربه على ركوب خيل والده،

وكان الصبي يتعلق به أحياناً ويرفض تركه ويعلو صراخه رافضاً أن يدع عبدو يغادر إلى بيته بدونه، فتأذن درية خانوم لعبدو بأن يصطحب ابنها إلى بيته، فيقضي الصبي ليلته يلعب مع أولاد عبدو، وينام قرب ابنته حسنية، يضم ثوبها بيده حتى الصباح، ثم شب الصبي، وانقطعت زياراته إلى بيت العربجي...

كان عبدو يعد عفيف آغا أغلى رجل في عالمه، فهو لم يفقد إيمانه به مرة، ويرى فيه أشياء لا يراها عبدو في نفسه، يخبره دائماً بأنه سيكون ذا شأن عظيم، رجل بمليون رجل، وقد رحل الآن، وخلفه خلف أضاع الأمانة، واتبع وساوس الشيطان، تقوده إلى ذلك غيرة سببت له المرض، وحسد أكل تعقله كالأسيد، كيف لشريف أن يستمر على بغضاء رجل بات في عداد الأموات؟ لكن حسد شريف كالنار، تأكل نفسها إن لم تجد ما تأكله...

دلف عبر باب الزقاق المفتوح، وتذكر وصية العم شيث في خطبته، انصر أخاك في موطن ينتقص فيه من عرضه، وينتهك فيه من حرمته، وسينصرك الله في موطن تحب فيه أن ينصرك...

شد عبد يده حول الحقيبة التي حوت المسروقات ورفع رأسه واتجه نحو الباب الداخلي للقصر، والتقت نظراته مع نظرات أبي حمزة الذي وقف بجوار الباب رفقة ابنه وأبناء أخيه لاستقبال المعزين، اشتبكت نظراتهما بحدة تنبئ بأن أبا حمزة قد بلغه أخبار إخفاق خطته في سرقة أخيه...

دخل عبدو باحة القصر، وخفتت الأصوات، وتكاثر الهمس وقد لاحظ الجميع ثياب عبدو وذراعه الملطخين بالدماء...

ضرب شريف بعصاه الأرض وصرخ: ها قد أتى السارق.

ضاقت عينا عبدو ولم يرد، بينما نزلت درية من مقصورتها وعصا والدها المطلية بالذهب تقرع على الأرض برنين...

- لقد حذرت أخي من شرك، أخبرته أنك ستسرق منه، فما أنت إلا زرباوي،

يسلب القوافل والمسافرين، وقد سرقت مني مراراً، ولكن أن تسرق أخي؟ ولي نعمتك؟ تسرق أموال أولاده الذين باتوا أيتاماً؟ ويل لك يوم الحساب!

علم عبدو بأن شريف قرر قلب الطاولة عليه، كي يضربه ضربة استباقية، فيصبح أي كلام سينطقه عبدو مجرد محاولة لرد تهمة، ويبدأ بعدها الصد والرد بينهما، حتى تقرر جموع المعزين فض العراك، وبالطبع لن يصدقه أحد، فهو مجرم في عيونهم، وسيصدقون شريف...

قالت درية وقد وقفت قربهما:

بل أنا من أرسلت عبدو إلى الخان ليتولى حراسته، كنت أعلم أنك ستحاول سلبه. فلم تحب أخاك يوماً... لكنه لما يوار الثرى بعد، وها أنت تحاول الاستيلاء على مُلكه.

رد شريف وهو يلوي رأسه: احفظي لسانك يا امرأة، فهو ثعبان قد يلدغ ويودي بك إلى القبر فتلحقي أخي -رحمه الله- سريعاً.

خطا عبدو بينهما ليرد عن درية: لأجل من اجتمعنا اليوم لنودعه لن أرد مظالمك، وها أنا أرد المال إلى أهله...

سلم عبدو المسروقات إلى درية... وقبل خروجه يهمس لأبي حمزة: ابك على خطيئتك، فمن كان يكرر غفران أفعالك قد مات، وأما ربه، فحي لا يموت...

اتجه عبدو ليخرج من القصر تشيعه عيون حسن وابنتيه اللتين تعملان خادمتين في قصر الخانوم بإعجاب ممزوج بالقلق. فالحاضرون كانوا يتبادلون نظراتٍ متآمرة. فلو سمحوا لتصرف عبدو العربجي أن يمر، فستصبح عادة الطبقة الفقيرة أن تحاسب ساداتها. فهذه الطبقة هي التي تجعل الواحد منهم غير متساوٍ مع غيره، فلا يضطر لخوض صراعات الحياة بقواه الخاصة -إن امتلك قوىً أصلاً- بل يسخر عماله وموظفيه ليخوضوا صراعاته، وينفذوا مكائده، حيث يتربص كل آغا أو أفندي بالآخر ليفتك به قبل أن ينال الآخر منه، فتبقى الحياة

في الحارة مستكينة تحت ظلال الكراهية وانعدام الأمان...

أبو حمزة يتمتع بدعم ومساندة قاعدة شعبية من سكان الحي، ففي ظاهر الأمر كان هو شقيق الآغا، وقد انتقل إليه احترامهم لأخيه ومحبتهم إياه، وقد افترض الجميع أنهما من طينة واحدة. بل إن شريف كان يفدي أخاه بحياته في الظاهر، ويحتفظ بعدائه الباطني له لنفسه، فرغم أن كراهية الأخوة بعضهم بعضاً، هي شرع البشر الذي بدأ به هابيل بعد أن قتل أخاه قابيلًا، واقتدى بهما أخوة يوسف، ورموه في البئر، إلا أن البشر ما زالوا يستنكرونه، فهم لا يعلمون بأن شريفًا الواقف بباب قصر أخاه لتقبل كلمات المعزين ومؤاساتهم، قد حرض (مُغسل الأموات) ليدس بصمة أخيه المستلقي جثة هامدة فوق نعشه على حجة بيع الأرض له، كي يحصل عليها زوراً وبُهتاناً...

وقبل نهاية مجلس العزاء، وقد تناسى الجمع ما حدث، وقف مُختار الحارة وصفق بيديه مرة لجذب انتباه الجموع، فطلب الترحم على الميت، وأثنى عليه وعلى الفترة التي تولى فيها قيادة شؤون الحي... ثم نظر إلى أبي حمزة وقال:

وكي يستمر حال الحي، فيبقى مُنظماً، نحتاج إلى رجل أثبت استحقاقه وصدقه في الفترة الماضية ليخلف عفيف آغا النشواتي، فكما تعلمون، وحالنا كحال أي مجتمع، نحتاج إلى من يتولى إدارة أمور سكان الحارة، وتسيير شؤونهم. وإلا سيعم الاضطراب والفوضى أنحاء حارتنا، فيكثر فيها السلب والنهب والاغتصاب. وأنا أرشح كبيرنا وشقيق الآغا الراحل، والأحق بيننا ليتصدى لمسؤولية كهذه، شريف آغا النشواتي، أبو حمزة، فماذا تقولون؟

أيد الجميع قرار المُختار أبي أحمد، بينما دخل حمزة من باب القصر يحمل عباءة النشواتية، واجتمع مجلس منزول الحارة وألبسوها لشريف، ليصير بذلك هو الآغا الجديد...

كان شريف كأخيه، يعلم قيمة عبدو العربجي وما لديه من قدرات كامنة... كان

يعلم بأنه وإن لم يأمن جانب عبدو، فلن تهنأ حياته في الحارة وسيبقى تحت رقابة العربجي ولفيفه من البائسين والمعترين، ولاسيما وأن عبدو يعرف كثيرًا من الأسرار التي سيحتاج إليها شريف ليوطد فترة زعامته، قابله في ساحة النشواتية بعد بيعة رجال الحارة، كلمه بكلمات تحمل صبغة النصح:

- انضم إلي، لنصعد معاً!

- لكنك غارق في الرمال المتحركة يا أبا حمزة، وكل خطوة تخطوها، تشدك أسرع نحو الأسفل، وكل حركة تسبب نزولا، أمثالك لا يصعدون، بل يتجهون إلى الجحيم بعناد وتصميم!

- وأنت الخبير بالجحيم! شيطان زرباوي مُدعٍ للرجولة، وإن قررت عدائي، فسوف تعض أصابعك ندماً، وتخسر كل شيء، وتخرج من هذه الحارة صفر اليدين كما دخلتها، ابن حرام وحسب!

- سيكون هذا ثمناً زهيداً، أدفعه بسرور مقابل رؤيتك تعود إلى الخرابة التي خرجت منها بفضل أخيك، لرؤيتك تبكي بحرقة فوق قبر أختك التي منعتها أن تتزوج، وحبستها حتى ماتت قهراً وحسرة، بينما أنت توهم عفيف آغا بأنك تعتني بها... ربما نسبي غير معروف... ومشكوك به، لكني لست خائناً، ويعلم الله أني أبعد ما أكون عن الندالة...

- سنرى إن كنت ستحتمل تبعات عدائك إياي إذاً...

(باب الجور)

فقد عبدو زوجته فوزية في تلك الليلة، بحث عنها أربعة أشهر في كل مكان خطت إليه يوماً ولم يجدها، كما أرسل أخباراً إلى كل الخانات التي ارتادها في حياته السابقة، وانتظر خبراً عنها لوقت طويل، كما أنه زار القرية التي عاشت طفولتها فيها (عشقة) ووقف على أطلالها رفقة كرمو، رأى الأزهار تغطي المكان بأكمله، كما تطاولت الأشجار واتسع فيئها، أما الينابيع فكانت تفور من باطن الأرض صافية وعذبة، ولا أثر للبشر في أنحائها، كأنها جنة مهجورة...

- ما الذي يمكن أن يكون قد أفسد قرية كهذه؟ تبدو كقطعة من النعيم...

- السلطة المُطلقة يا عبدو، مفسدة مطلقة...

- أوضح لي...

- السلطة هي ملاك حارس يحمي الأمن في الداخل، ويصد الغارات عن الحدود في الخارج، لينعم السُكان بالاستقرار مما يدفعهم لبناء المكان الذي يعيشون فيه، ودعم ازدهاره، لكن هذه السلطة يجب أن تخضع بدورها لقوانين ودساتير يعرفها الجميع ويقبل بها، لا أن تكون بلا حدود، فيظن من هم في مواقع السلطة، سواءً أكانوا شخصاً واحداً أم جماعة، بأن الأمر لهم وحدهم، فيأمرون وينهون، ويصبحون كمن يقطع الشجرة كي يقطف ثمارها!

- الإنسان أكثر شيء عجباً...

-

انتشر خبر اختفاء زوجة عبدو العربجي في الحارة كلها، وصار الخوض في عرضه، والتكهن بمصير زوجه، حديث الجميع... فقال البعض: بأنها فرت مع عشيقها، وقال البعض إنها عادت إلى سيرة حياتها القديمة وقد ضاقت ذرعاً بعبدو وفقره لتعمل غانية في أحد الخانات البعيدة في مصر، وقال آخرون بأن

عبدو شهد خيانتها له في عقر داره فقتلها ومثل بجثتها ووزع أشلاءها على جبال دمشق السبعة، أما الحقيقة؟ فلم يهتدِ إليها أحد...

بعد أن حاول شريف سرقة خان كامل آغا سراً، وتزوير أمر بيع الأرض بوضع بصمة الرجل الميت على الحجة بالاستعانة بمغسل الأموات، وبعد مضي عدة الأرملة درية خانوم، والتي قررت مواجهة شريف علناً واستعادة حقوقها وحقوق أولادها...

فجمعت الرجال في المنزول بمن فيهم شريف وابنه، الذي أصر زوجها الراحل على عقد قرانه من ابنته الوحيدة زمرد قبل وفاته. وعندما تأكد لها حضور الجميع، نزلت إليهم... كان الجميع ينكرون أمر حضور درية مجلس الرجال، ولكن دواخلهم كانت تنتعش لرؤيتها، فهي نسخة أنثوية عن كامل آغا، كلما زادت سنوات عمرها، يظهر شبهها بوالدها أكثر، لا في الشكل الخارجي وطريقة السير والحركات الجسدية وطريقة نطقه للكلمات، بل حتى في صفاته النفسية وأخلاقه وحزمه، بل كانت تبز أباها أحياناً وتفوقه قوة، وقد رزقها الله بالذكور، ومنعهم عنه لحكمته.

- العباءة يجب أن تعود إلى مستحقيها يا شريف! عباءة أبي! كامل آغا الجوخدار، وصهره العتيد عفيف آغا النشواتي من بعده، فكيف يمكنك أن تقف مرفوع الرأس وقد سلبت أخاك في قبره؟ تظن الأمر سيدفن معه وقد صار عاجزاً عن رد الأذى وهو في ديار الموت؟ فسلبته الأرض والأموال؟

- لقد أخبرتك لتحفظي لسانك من قبل!

اقتحم عبدو المنزول برفقة المغسل الذي كلفه شريف ليتم لعبته... يقف مغسل الموتى ومُنتهك حرمتهم في مواجهة ضميره، ومثله مثل معظم الرجال، يخسر تلك المواجهة وينفي معرفته المسبقة بشريف، ترن في اذنه تهديدات (الهرايسي) أكبر أتباع شريف النشواتي، بأن يختطف ابنته يسرى، ويغتصبها، ثم يقتلها.

ترفع درية رأسها في مواجهة الجميع، وقد شهد الشاهد الوحيد زوراً، فهي تثق بحدسها، وهو شاهدها الأهم ودليلها القاطع في كل منعطفات حياتها... فتكسب معركتها هذه، فتزرع شكوكاً في رؤوس الرجال حول شريف، في سبيل فوزها في الحرب الكبيرة، بأن تظهر شريفًا على حقيقته للجميع، وتعيده صاغراً كما كان.

...

(باب رمي المحصنات)

وجه شريف قوة انتقامه للموقف المهين الذي فرضته عليه درية نحو عبدو وعائلته.

فأرسل (شومان) وهو أحد رجاله إلى بيت عبدو، فتحت زهرة الباب، فأخبرها بأنه يعرف مكان أمها، وعرض عليها خاتم أمها الذي كان قد سرقه من بيتهم في أثناء غيابهم قبل أشهر، أي في اللحظة التي قرر فيها شريف آغا أن يرفع راية الحرب في وجه العربجي، وعندما رأت زهرة الخاتم المميز والذي نُقش عليه «إني لأعلم واللبيب خبير، أن الحياة، وإن حرصت، غرور» طلبت منه أن يصحبها لرؤية أمها، وقد صارت حياتهم جحيمًا بعد اختفائها، فوالدها غارق في جحيم التفكير المفرط، يسيطر عليه الغضب لأتفه الأسباب، فيصب جام غضبه عليهم... وقد كانت أمهم هي الحاجز بينهم وبين غضبه في السابق، أما اليوم... فلا حواجز... فكرت زهرة أنها إذا رأت أمها، وفهمت سبب مغادرتها، ربما تقنعها بالعودة إلى المنزل، فيستعيد والدها كرامته ومكانته، ويلتئم جرح رجولته النازف، فيبرد غضبه...

لكن قرارها بأن تثق بشومان لم يكن فيه شيء من الحكمة، وقد يكون برهاناً صارخًا على انعدام خبرتها بطبائع البشر عامة، والرجال خاصة!

فشومان أشدّ الرجال بُخلاً على أهل بيته، لدرجة قبول إحسان الآخرين عليه، كان بخيلاً بماله وحسن أخلاقه على حد سواء، وعندما تستعير زوجته حاجة ما من جيرانها يخفيها في مخبأ سري، ثم يرهنها لاحقاً أو يبيعها، ليشتري بثمنها معجونة الحشيش.

لكن مع بخله و سوء أخلاقه تدبر أمره ليتزوج نورية بنت موسى الدحام، والتي اقترن حُسنها وجمالها، بسوء حظها وقلة حيلتها وغلبة الدين على عائلتها، كان شومان يتخلى عن بخله لأجل شيء واحد، وهو الخمر، وكلما أفقده الكحول

رشده، تباهى بفحولته ليصبح أضحوكة سائر العربجية، فالجميع يعرف أنه لا يجرؤ على لمس نورية إلا بإذنها، والتي كانت تختار أوقاتها قبل نزول الحيض، كيلا ينتج عن علاقتهما الزوجية أي أطفال...

لم يكن يحترم أحداً سوى شريف النشواتي، فهو الوحيد الذي سمح له بالعمل معه، وقد طرده الجميع بسبب أفعاله المخجلة.

أما نورية فكانت تستهلك ساعات اليوم في إنجاز أعمال البيت، والعناية (بحاكورة) الخضروات، وقن الدجاجات وساكنيه، وتكسب بعض النقود من مجالسة أطفال الجيران في غياب زوجها...

وكانت تمضي أيامها وهي تحتمل وزر زواجها من شومان، كقضاء لا سبيل لرده، وقدر يستحيل تغييره، حتى ذلك اليوم، الذي عاد فيه إلى المنزل رفقة محظيته...

فبعد أن ذهبت زهرة رفقة شومان بعربته كي يوصلها إلى حيث توجد أمها، وبعد أن صارا خارج المدينة، وسط الأحراش المحيطة يترصدهما زوج من عينين حاقدتين، وصارت الظروف مناسبة، راود البكر عن نفسها، بكل وقاحة، فاخذت تصرخ وتستغيث طالبة النجدة، فبانت العينان المختبئتان خلف الأجمة، وبان صاحبها، فلم يكن إلا (الهرايسي)، أحد ضباع أبي حمزة، كأنه التجسيد البشري لمعاني السفاهة، والشاهد المناسب على جريمة لم تحصل!

ذهب الثلاثة إلى المنزول، ووجدوا أبا حمزة وابنه ولفيفًا من أكابر الحارة في استقبالهم:

- وجدتهما في البرية، رأيتهما يرتكبان الفعل الفاحش في العراء، على مسمع ومرأى كل من يمكن أن يمر بهما ويرى ويسمع!

فصرخت زهرة مستنكرة: أقسم بالله لم أسمح له أن يمس شعرة مني!

فردّ الهرايسي بحقد: ابنة الناشز.ساقطة لا يحقّ لها أن تفتح فمها! لقد رأيتكما بعيني!

بكت زهرة بحرقة: اتق الله الذي رآنا جميعاً! ما الذي رأيته؟

وأكملت وهي تستعطف أبا حمزة: لقد راودني عن نفسي.

لحظ الرجال بأن قميص شومان قُدّ من قُبُل، برهان على صدقها وكذب الهرايسي، في حين بقي شومان على صمته وقد انتهى دوره بوصفه فاعلاً، وتحول لمفعول به.

صرخ أبو حمزة بالهرايسي ليخفي شومان مع دليل براءة زهرة: أبعدوا هذا الآبق عن ناظري... واستدعوا القابلة ناجية على الفور...

دخلت ناجية المنزول، تُلاحقها عيون رجال لا تكترث لهم، فهي تنظر إلى الرجال على أنهم وسائل لتحقق هدفها النهائي فحسب، وهذا سبب إضافي يجعلها تكره عبدو العربجي، الرجل الذي خان والدها، وتتمنى موته، فهو عثرة دائمة في طريق تحقيق طموحها! وعندما رأت زهرة ابنته تقف وحدها، وجسدها يرتجف ببكائها، ودموعها تهطل من عينيها من هول الموقف الذي زجتها فيه الظروف، قررت، وقبل أن تعرف ما القصة أن تفعل أي شيء لتسبب أكبر ضرر لعبدو...

قال أبو حمزة لناجية: أنتِ يا ناجية بيدك حياة هذه البنت وموتها، بيدك تقتلين رجلاً يجلس في الداخل وبيدك تحييه، وبكِ تهرق كرامة عائلة أو يُحفظ ماء وجوههم...

نشجت زهرة وقد بدا عليها العياء: لم أحضرتم القابلة؟ لم يمسسني بسوء! أليس فيكم رجل رشيد...

رد شريف بلهجة مُحابية: إذاً فأنت بريئة، ولا تخشين الفضيحة... نريد التأكد

فقط، حتى لا نقتل رجلاً خطأً... وتعرفين أن القتل سهل على أبيكِ

تحسست ناجية رقبتها للحظة، ثم دلفتا إلى الغرفة الجانبية الملحقة بالمنزول، فأشار أبو حمزة إلى الهرايسي ليستدعي عبدو...

وبعد أن دخلتا الغرفة، أخذت زهرة ترى تلك الظلال، التي أخبرها عنها والدها مرة وقد أفقده السكر رشده، فصار حزيناً، كعادته في بداية فترة عمله مع أبي نوري، فكان الكحول يغرقه بالشعور بالذنب، وخيانة عهده، فيصبح رقيقاً لدرجة البكاء، أخبرها عن الظلال السوداء التي تخيم على الأجواء القلقة، انذاراً بالحُزن القادم، فهي كانت تعرف مدى كراهية ناجية لعائلتها. وإذ استلقت وكشفت عن ساقيها، شعرت بأنها تنفصل عن جسدها، وقد باتت في عالم الأرواح.

- أنت بكر بالفعل، لم ذهبت معه؟

فغرقت الزهرة في دموعها الندية! فهذا السؤال سيعذبها في كل ليلة مُقبلة، من حياتها القصيرة البائسة.

كان عبدو يبحث عن ابنته في كل مكان، حتى إذا طلبه أبو حمزة، تحسس أن في الأمر سراً، وعندما تواجها في المنزول أيقن عبدو أن شكوكه في محلها:

- أهديتني مغسل الأموات، ليديننني، فأدانك. والآن سأهديك هديتي أنا، شرفك وشرف عائلتك مرغهما الطين! ابنتك! هل هي بنتك حقاً؟ ربما، فما أنت إلا زرباوي عربيد!

يتحفز عبدو للذود عن عرضه، بلسانه ويده:

- زن كلامك، واحفظ لسانك، حتى لا يخترقه (الشنكل) وتصبح ألثغ!

- بل أنت! احفظ حرمة منزلك بدلًا من أن تخطط للمكائد! راقب بناتك وانتبه لتصرفاتهن بدلًا من أن تراقب الناس! فلولا (الهرايسي) لكانت الفضيحة أكبر، والذل سيلاحقك طوال حياتك، لوقوفك ضدي...

استدعى أبو حمزة ناجية إلى المنزول مرة ثانية... ولما رآها عبدو، فقد القدرة على النطق، هي الوحيدة التي تستطيع أن تخفف عنه هول الموقف، ولكنها تأبى أن تسمع تسويغاته، وترفض رفضاً قاطعاً أن تسامح أو تصفح عن خطئه غير المقصود...

- انطقي يا ناجية!

- زهرة... ليست بكراً...

أسقط في يد عبدو، وكان الجميع يرمقه بنظرات الاتهام، وانقلب عالمه المضطرب أصلاً رأساً على عقب، لكن هذا العالم تهدم فوق رأس ابنته... اختنق بشعوره بالتقصير، هل سببت قسوته عليها، هذا السلوك؟

- أريد أن أراها...

اتجه نحو الغرفة المُلحقة بالمنزول، اقتحم الغرفة كالوحش الكاسر، فوجدها قائمة تصلي وجسدها يرتجف بالبكاء، فاستند إلى الباب، لقد لجأت إلى الله، هل يقتل ابنة قلبه وقد طلبت العون من الله؟ إنه والدها، خلقها الله من دمه، هو من يجب أن يحميها من القتلة والمجرمين، كالثلة الذين اجتمعوا خارج الغرفة، وأجمعوا على إذلاله وإذلال ابنته...

-

أخذت زهرة تلهج بالدعاء: إنما أمرك إذا أردت شيئاً أن تقول له كن، فيكون، أسألك بجميع ما أحاط به علمك ووسعته رحمتك أن ترحمني، اللهم قني شر ما خلقت ومن خلقت، فإنهم يعجزونني ولا يعجزونك، ولا تفضحني على رؤوس الأشهاد وأنت الشهيد، فاحشرني مع الصادقين الطاهرين، أنا التي لم تدنس طهرك ولم تجرؤ على حدودك يا جبّار، اللهم يا أنيس الكئيب، يا من تغضب على من لا يسألك، أكرمني وأنا أسألك، انصرني على من عاداني، واجبر كسري وانصرني على من ظلمني، يا من حرمت الظلم على نفسك...»

ولا يطلق الله لسان عباده بالدعاء... إلا لأنه يريد الإجابة...

«دلفتُ من باب المنزول، أخبرني الجميع بأن عبدو هنا، رأيته في المنام ليلتها، رأيتهم يقطعون قطعة من قلبه وعلمت بأن بلاءه عظيم...

- الأرض مسجد، فعل الخير صلاة، والعطف على اليتيم صلاة، ورفع الظلم عن المظلوم صلاة.

سمحوا لي من فورهم أن أرى صديقي... ورأيته هناك... فارس الظلام يوسوس له، لكنه لم يكن أكثر ظلامًا من الثلة الذين اجتمعوا خارجاً، ليذبحوا قربانهم تقرباً من الظالم الأكبر، من ظلم نفسه...

- تريد قتل نفسك؟ الموت بأمر الله فقط لا بأمرك! فهل صرت قابض الأرواح؟

- يقولون بأنها زنت!

- هل رأيتها؟ هل شهد الأمر أربعة شهود يؤخذ بشهادتهم؟ أم كان شاهدهم أحد السفهاء؟ أستقتل ابنة قلبك؟ أهذا ما يمليه عليك عقلك أم صممت السمع عن صوته الصارخ؟ أتحيل ما حدث هنا، هذه الجعجعة لتصبح قاتل ابنته؟

كانت زهرة أول أولاده، والتي حولته من زرياوي وسكير وعربيد إلى أب، بعد أن حملها بين يديه كبر في قلبه شعور من الحنان لم يساوره يوماً تجاه أي إنسان آخر، كانت تصدر صوتاً كنواء قطيطة صغيرة، صوتها ذاك طرد الشياطين من رأسه وصار ينام لياليه نوماً هانئًا خاليًا من الكوابيس...

- سامح، وقد يسامحك الله، اعف، يعف عنك الله!

- لكنهم مجتمعون خارجاً، لا يعرفون شيئاً عن الصفح والغفران!

- الله يرانا جميعاً... واسمه العفو... ولا ينال عفوه إلا من يعفو عند المقدرة، أي العفو عن المخطئ مع القدرة على معاقبته على خطئه.

(باب نورية)

وكما ظن عبدو، فلا وجود لكلمة العفو في قاموس شريف، فكان ثمن ستر الفضيحة – التي لم تحدث أصلاً – باهظاً، حيث أشار شريف لعبدو كي يقبّل قدمه، كما فعل هو قبل سنين طويلة، ثم أجبر على الموافقة على تزويج ابنته – زهرته- لشومان العربجي السكير، فنطق عبدو ألفاظ العقد الشرعي وهو يضغط على يد شومان بقوة، كما لو كان مجوسياً يضم جمرة تحرقه كي تطهّر ذنبه، ثم ترك ابنته المسكينة في المنزول مع عريسها، لتواجه مصيراً أسود كالقلب الذي يحمله شومان بين جنبيه.

حين سمعت **نورية** باب بيتها يُفتح، كان حتماً آخر شيء توقّعت رؤيته - وقد رأت الكثير – أن يدخل زوجها رفقة امرأة أخرى، كانت زهرة كاسمها، رقيقة كشقائق النعمان البرية، شعرها يكلل رأسها كشعلة هادئة ولكنها حارقة، ستحرق حياتهم بأكملها، لم يسعف نورية الوقار لكتم مشاعرها، وتدحرجت من فمها صلية شتائم سمعها المارة في الزقاق، وتناقلوها إلى الساحة، فانتشر الخبر في كل بيوت الحارة، ليتناقل الجميع أن زهرة بنت عبدو العربجي قد تزوجت شومان، وذلك بعد أن كانت ترتكب معه الفعل المنافي للحشمة في البرية، كالحيوانات، وأقسمت نورية على أن تحول حياة ضرتها إلى جحيم، وأنها لن تدعها تعيش معهم في المنزل، بل ستعيش في حظيرة الحيوانات التي كانت زهرة تتصرف مثلهم، وأن زوجها سيندم أيضاً، فقد تحملته كثيرًا، وقد فاض الكيل بها، فلن تحتمل أي تصرف أرعن آخر، بما في ذلك أن يتمم الزواج داخل حرم منزلها، كان حقد نورية عظيماً، حتى ظنّ أهل الحارة بأنها قد تقتل زهرة في ليلة ظلماء، وهو شيء كانت ترجوه زهرة، فالموت أهون عليها من العيش مع رجل دنيء كشومان تحت سقف واحد.

استمر غضب نورية كالنار التي كانت تحرق شومان وزهرة كل لحظة، حاولت زهرة مرة بعد مرة أن توضح لضرتها بأن الذنب في كل تلك المصيبة لا يقع

على عاتقها، فهي ضحية مكيدة من شومان، فقد عرض عليها علامة تخص أمها ووعدها أن يصحبها إليها، ولأنها رغبت في أن ترى أمها الحبيبة مرة أخرى رافقته، وعندما وصلا إلى مكان معزول حاول الاعتداء عليها ولكن خطته لم تكتمل، فلم يمس شعرة منها، بصقت نورية عليها ونعتتها بالكذب، وعندها شمرت لها زهرة عن ساقيها ودعتها لترى بنفسها أنها مازالت بكراً، لم يمسسها بشر بسوء، وعندما تأكدت نورية أن ضرتها طاهرة كماء المطر، وقد وقع عليها ظلم عظيم، تغيرت معاملتها لضرتها، فارتبط مصيرهما برجل واحد، أجبرتا على الزواج منه، ظلماً وفقراً، كانت زهرة تبكي طول الوقت بسبب الظلم الذي وقع عليها وخوفها الدائم من شومان، الذي يحاول أن يأخذها بالقوة كل ليلة، كانت زهرة تحاول مساعدة نورية في أعمال المنزل القليلة، فتحضر الطعام وتنظف المنزل، وتقدم لضرتها الشاي، وهما تحاولان التخفيف عن بعضهما، وعندما يحضر شومان إلى المنزل، كانتا تمثلان العداء، حتى لا يحس بأن الجو قد استقر بينهما وخلا له فيحاول أخذ زهرة إلى فراشه، الأمر الذي جعل شومان يضرب زهرة بالسوط الذي كان يؤدب به بغله، انتقاماً منها على تمنّعها عنه، ويحدث ذلك كل ليلة تقريباً، في حين تكون نورية في غرفتها تبكي على زهرة وحظها العاثر، وعندما ضاقت حياة العذاب الحيواني ذاك على زهرة، أخذت الحبل الذي يستخدمه شومان لتقييد بغله، وعلقته في سقف الحظيرة، ولفته حول رقبتها ثم قفزت في الهواء، حتى يخنقها الحبل، وتموت، عسى أن تجد في الموت راحة من هذه الحياة التي لا تشبه الحياة في شيء، لكن نورية أنقذتها في اللحظة الأخيرة، كما فعل كرمو من قبل، وبكتا معاً بشدة.

بعد أن زُج عبدو في السجن، بات شومان يضرب زهرة بقوة أكبر، وعندما صدر فرمان بإعدامه وافقت زهرة على مقترح نورية بالهرب، فبعد موت والدها، لن يبقى لها من ترجو أن ينقذها من جحيمها ذاك.

وقبل أن تعقد العزم على الهرب صدر فرمان آخر بالعفو عن والدها، فأسرعت

نورية بالذهاب إليه، لتخبره أن ابنته طاهرة وأن ناجيّة قد كذبت وشهدت زوراً، ولكن في أثناء غيابها عاد شومان إلى منزل وهو في حالة سُكر شديد، فاستغل غياب نورية عن المنزل وقرر أخذ زهرة إلى فراشه بالقوة.

قاومته بقوة كبيرة أمدها بها أملها بأن تتحرر أخيراً، لكن شومان بدا كبغله، يتخبط حولها بقوة لا واعية، حتى ظنت ألا منجى هذه المرة من براثنه، فحملت القنديل وهددته أن تحرقه وتحرق نفسها إن لم يبتعد عنها، وحيث أنه لم يكن في عقله، ولا شرف لديه أصلاً ليفهم دفاعها المستميت عن شرفها، لم يأخذ تهديدها على محمل الجد، فرمت القنديل بين رجليه فقفز مبتعداً نحو الباب، بينما انتشرت النار حولهما بقوة وسرعة، وقد أحاط بهما علف الحيوانات الجاف، اضطرب شومان بشدة وخرج من الحظيرة مغلقاً بابها خلفه بينما بقيت زهرة محبوسة في الداخل، فوصل اللهب إليها، وَأذاب حياتها الفتية، حتى صارت كلها، لا شعرها فقط، شعلة نار بشرية...

عندما وصل إليها والدها أخيراً... لم تنبعث كالعنقاء من بين الرماد... بل حلّقت روحها بعيداً في ملكوت الله، وذهبت إلى العادل... الذي لا يظلم عنده أحد...

أما شومان فقد لاقى المصير الذي يستحق، فوصل خبر موته سحقاً تحت حجارة منزله الذي هدمه الحريق، أو هذا ما وصل إلى سمع اليوزباشي.

أما الحقيقة فهي أن عبدو العربجي قتله من غير أن يرف له جفن انتقاماً لابنته البريئة والتي سبقته نار الظلم فأحرقت شبابها وبراءتها، فهشم رأس صهره كما لو كان حبة عنب فاسدة.

في تلك الليلة تحطم عالم نورية فوق رأسها، فأصبحت أرملة، وماتت صديقتها الوحيدة، فوقفت بين جمهرة من سكان الحارة الظالم أهلها وأخبرتهم أن ضرتها كانت بكراً لم يمسسها بشر، وأن ناجيّة قد شهدت زوراً.

لم يكترث أحد لموت شومان، ولا حتى أبو حمزة الذي ضحى شومان بحياته

لأجله مراتٍ ومرات... فدفنته نورية بلا مظاهر حداد تذكر، وواصلت العيش وحدها في المنزل، وصار عبدو العربجي يزورها دائماً، وقد اتخذها ابنة له بعد أن صانت ابنته الراحلة وبرّأتها، وكان يتولّى مسؤولية مصروفها اليومي وحمايتها، حتى بنى دولته ونقلها لتعيش في حمايته.

-

(باب نوري)

دخلت أم محمود إلى صالة الطعام، اقتربت من المائدة التي كانت مُحاطة بأفراد عائلته جميعاً، ثم أسرت بكلمات إلى درية خانوم، لم ينادها ب (ماما) خلا مراتٍ قليلة طوال حياته، لابدّ أن أم محمود قد طلبت منها أمراً مُستعجلاً، لأن الخانوم نهضت بوقار، واتجهت نحو الباب

– هل ننتظرك ياخانوم؟

- لا سيد نوري! أكملوا طعامكم! لن أتأخر!

تبادل أخوه وزوجته النظرات باسمين، في حين ابتسم حسن من طرف خفي أما زوجته وردة فبقي انتباهها مع البنتين تطعمهما بينما بطنها المنتفخة – تلامس المائدة، ومع أنها وزوجة جمال قد صارتا حاملين من وقت متقارب، إلا أن زوجته بدت كحوت صغير مقارنة بعفت، التي لم يتغير شكلها كثيراً، لقد فقدت جلساتهم شيئاً من صبغتها العائلية منذ مات والده، كأنهم باتوا في خضم منافسة، وحدها درية خانوم تعرف الفائز، وربما عينته مُسبقاً، لاحظت وردة نظرات زوجها، ابتسمت له ابتسامة بلهاء، فهي ثلاثينية، أثمن شيء تملكه هو نسبها، أما عقلها فيفتقر للرجاحة، تدّعي الورع والرضا بقضاء الله وقدره ولكنها سخطت في كل مرة رزقها الله بنتاً، تبدو نموذجاً للإدعاء والتكلّف،

فقالت لسلفتها: فلتعلمي، من تلد الصبي الذي في بطنها أولاً، تسميه عفيف!،

ضحكت عفت (زوجة جمال): واحدة منّا تحمل صبياً، وكلتانا تعرف من هي!، احتفن وجه نوري، بينما عادت درية إلى الصالة:

- ناجيّة في حجرة زمرد تدهن لها العلاج، فاستعدا لتعاين حالكما ثنتيكما،

اتجهت درية لتجلس على رأس المائدة وهي تولي حسن ابتسامة خاصّة، لاحظها نوري وجمال وأوداجهما تنتفخ غيرة، نهضت المرأتان الحاملان بينما

دخلت أم محمود لتعتني بالطفلتين وتصحبهما خارج الصالة وتتبعها المرأتان،

قالت درية:

- كان هذا مرسال المتصرف! الوالي يريد حسم الأمور! أن يسلّم تجارة القمح لرجل واحد! وقد انتهى رأيه إلى الاختيار بيننا وبين (الحبوباتي)، ونحن لازلنا في عراك داخلي مع عمكم! وأنتما تنتظران زوجتكيما وما تحملانه في بطنيهما لتستحق لقب (الآغا)!

اجتنب حسن النظر إلى أخويه، بينما خيم التوتر على جو الصالة؛ بينما كان الصراع بين درية وشريف يتصاعد كان الصراع داخل نوري يتنامى، كان يتوقع من أمه أن تعيّنه (الآغا) لأنه أكبر أولاد عفيف آغا النشواتي، لكنها أبت! فقد وقع في غرام امرأة من العامة في أثناء جهل الشباب وفورته، وأراد الزواج منها، لكن أمه رفضت وأخبرته بأنها ستتبرأ منه إن أصّر على موقفه، فترك حبيبته وتزوج وردة التي اختارتها أمه، لم يشعر نحوها بالحب يوماً، لكنها واجب قام به تقرّباً من أمه التي لم تغفر له يوماً ذنبه العظيم، حين وقع في الحب!، وبعد أن وقعت عيناه على ناجية، وفهم النداء في عينيها صار يريد الزواج منها، وقد نبض الحب في قلبه الجبان من جديد!، أصبح يتحين الفرص ليسمح لها برؤيته ولا يطمح لرؤيتها، وقد كان اهتمامها به يشبع غروره وبقايا شاعرية في داخله، فناجيّة مثال المرآة القوية تبدو أقرب إلى أمه من زوجته الساذجة، توحي له بعوالم من خيال في حال تزوج بها، فتستفز رغباته وتتركه مُعلّقاً في عالمه المحدود، توحي له بأنها الوحيدة القادرة على الحمل بصبي منه، فهي قابلة وتعرف طريقة الحمل بصبي، كما أنها لا تهدأ حتى تحقق مُرادها، ومُرادها أن تصبح خانوم وأقوى امرأة في الحارة، وأن تجعل منه أقوى الرجال! كانت تُذكّره بأمه، وفي أحلامه السرية يتخيّل إعجابها به، ورغبتها بقربه، تغنيه عن إعجاب أمه وإكرامها له والذي لم يشعر به يوماً! لذلك كان يحسد حسنًا ويحاول تقليده، وفي كل موقف تفضّل به أمه أخاه عليه، كان يصير أكثر حنقاً وإصراراً.

كان يميل إلى مرافقة أمه عندما يتغيب أخوه في عملٍ ما، يوهم نفسه بأنه الأقرب إليها، ويتأمل نظرات الحسد من أهم سادات دمشق لمرافقته الخانوم، ويصدق كذبته تلك: فيصبح أكثر حيويةً واندفاعاً، ويخيل إليه أنه قادر على انتزاع الأمجاد بضربة حظ واحدة، فيختطف النساء، ويضمهن إلى حريمه، ويدمر مدن الأعداء وحصونهم، بل حتى يعقد اتفاقيات مع المتصرف، وفي نهاية الأمر نصّب نفسه الصدر الأعظم في الدولة العليّة!

صار على أعتاب الأربعين من عمره، وهو يخدع نفسه بالأحلام والرؤى، ولكنه في أعماقه كان نوري النشواتي، أبو البنات، وخيبة أمل أمه، خصوصاً بعد أن ولدت زوجة بنتها الثالثة وأودت بحياتها حمى النفاس!

لم يشرّح مشاعر حزنه لوفاة وردة طويلاً، هل كان حزنه هو وجه آخر لغضبه من عجزه على لومها لأنها ولدت بنتاً ثالثة؟ أم أنه حزن سببه فراق زوج لم يحبها يوماً لكنها كانت امرأة صالحة؟ لا وقت لديه لتشريح شعوره ذاك! فزوجة أخيه ولدت صبياً وهذا يجعل من أخيه الأوسط المرشح الأمثل لسيادة الأسرة من جهة، كما أن أمه خطبت لأخيه الأصغر ابنة المتصرف للزواج من جهة ثانية، وهذا ما يجعل موقفه الأضعف بين إخوته وللحظة شعر بالحسد تجاه أخته (زمرد) فقد ماتت وارتاحت من هموم الدنيا وشؤون الحياة! لكن كأن أمه وعمه قد اتفقا من جديد وأعاد لها العباءة، وسلم بأنها المالك الشرعي للأرزاق، وهي التي تديرها في الكواليس بينما يبقى عمه في الواجهة، كموظف عندها كما كان في الأصل! قرر نوري أن يشتري القمح من الفلاحين سرًا، وأن يودعه في منزلٍ كبيرٍ اكتراه خارج المدينة، وجنّد (الهرايسي) ليشرف على هذا الأمر! ومالم يحسب له حساباً هو انكشاف أمره سريعاً، فعمه خبير بشؤون الاحتيال والخيانة، وهذا ما يجعل لديه حاسة سادسة تنبهه عند وجود مؤامرة ما تُحاك في الخفاء، أو خيانة ما! وربما لم يكن الأمر حاسة سادسة! ربما كان مجرد إحساسه الدائم بالارتياب بمن حوله، وتشكيكه بنياتهم،

وفي أحد الأيام، بعد موت وردة، تأمّل ناجيّة بنت حسني العربجي، لقد مات أكبر حاجز بينهما (زوجته) أم البنات، وصار بحاجة لمن تعتني ببناته، كانت علاقة ناجيّة بأمه قد وصلت إلى مستوى قد يسهّل له أمر الزواج منها، وتوصل نوري لقرار: إما ناجية أو لا أحد!

قلّب نوري أمري سرقة القمح والزواج طويلاً في عقله، فهو لا يبادر سريعاً، وأي شيء عارض أو طارئ كفيل بجعله ينسحب مبتعداً.

حتى الهرايسي كان متشككاً كسيده، وعندما أخبره أنه سيتزوج القابلة ناجيّة كاد ينقلب على ظهره من الضحك!

– أنت نوري النشواتي! كبير عائلة النشواتي! تتزوج قابلة! ما الذي دهاك يا رجل!

- الناس جميعهم سواء! خير وبركة!

–ناجيّة شر ولبكة! ابحث عن مقامك! تزوج ابنة الباشا! ابنة قائم مقام وليس قابلة تقضي أيامها بين سيقان النساء تُبعد برازهن جانباً لتكمل عملية الولادة!

وهكذا وعندما مثل نوري بين يدي الشيخ أعلن بأنه لن يتم الزفاف... ولن يتزوج ناجية، التي جن جنونها وأخذت تنعته بأبشع الصفات في حضور أهله! فأيقن صحة قراره!

وبينما كان أخوه حسن يتبع قلبه مُبتعداً عن عقله وعن أمه في مقرهم، كان نوري يشق طريقه مستغلاً شقاقهما ليتقرب منها، وعندها ظهرت حقيقة سرقاته، وفضحه عمه أمام أمه، ولأول مرة في حياتها نظرت درية إلى ابنها البكر نظرة جديدة، ربما حسن يشبه أباها، ولكن نوري شبيه بها! قادر على حبك المكائد والغدر بأعدائها! كما يملك طاقة حقد تحركه بقوة أكبر من قوة ابنيها الآخرين! فاعترف لها بفعلته من غير أن يرف له جفن، فكانت كأنها تنظر إلى انعكاس وجهها في المرآة، نرى تصميمها على الانتقام من الجميع لأنهم يرونها مجرد

امرأة... حرف ساقط لا قيمة له، أخيراً قد وصل! بات جاهزاً ليكمل مسيرتها لا مسيرة زوجها الراحل! وعندما طلب منها أن تسامحه، وافقت على شرط أن يصبح بديلاً عن حسن الذي ترك البيت وتزوج حسنية ابنة عبدو العربجي، وألحق العار بالعائلة، وقبل نوري شرطها ذاك، فلم يعرف يوماً سوى الحب المشروط، وتحول نوري من حائط خامس في أي غرفة، إلى كبير النشواتية والوريث الشرعي لعفيف آغا النشواتي.

(باب الجنازة بلا ميت)

توافد إلى جنازة زمرد جميع سكان الحارة، ومنهم رئيس الكركون وصاحب المطعم الذي لا يغادر مطعمه إلا نادراً، أقفرت أزقة الحارة، وعمّها الحزن، وتوقف الناس عن إقامة الأفراح حزناً على الصبيّة، كانت ناجية تراقب الجو حولها وقد خيم الحزن عليه بشيء من التشفّي، فهي تعلم أن مشاعرهم تلك قائمة على النفاق، فلو عرفوا بأن التي ماتت بالفعل هي الخالة لطيفة وليست زمرد، لما حزنوا لحظة واحدة، فلا أحد يحزن لموت الفقراء،

هكذا تكون ردت الجميل للخالة لطيفة والتي وهبتها منزلها فجعلتها من أصحاب (المالكانات) كما كانت تحلم طيلة حياتها، لقد حمل نعشها سادات الحارة وأكابرها، رفعوها فوق رؤوسهم، وأعلنوا الحداد ثلاثة أيام على روحها، وقد ذبحت درية خانوم عشرين جملاً ووزعت لحومها على الفقراء والدارويش كرامة لروح المرحومة، عسى أن تكون رحلتها خفيفة، ويُبعد الدعاء لها بالرحمة يبعد عنها عذاب القبر وظلماته.

بينما ناجية جالسة في مجلس العزاء قرب دريّة خانوم تتقبلان كلمات المواساة من جموع المغريات، أقسمت أن يمشي الآلاف في جنازتها، وأن يقام مجلس العزاء على روحها أيامًا طويلة ولن تموت إلا خانوم، رمقت درية بنظراتها خِفيَة، قريباً تتزوج من نوري وتصبح (ناجيّة خانوم) كنّة درية خانوم والراحل عفيف آغا النشواتي.

لم تطق صبراً كي تنشر خبر زواجها من نوري على أسماع الجميع، كي يبدؤوا بالتعامل معها بالطريقة التي تليق بها بوصفها خانوم وسيدة من سيدات المجتمع الراقي!

سمعت دبيب دمها يغلي في عروقها وطبول النصر تقرع في قلبها.

..

(باب شيخ العربجية)

لا شيء يحدث مصادفة، بل كل شيء يرتبه القدر.

فقد كان جركس، مساعد عبدو، يمارس عمله المعتاد في الشارع، ومعه أربعة عمال موزعين، اثنان على كل جانب من جانبي العربة، يوزعون لحم الذبائح التي ذبحتها درية خانوم على نية شفاء ابنتها زمرد من مرضها، وهذا هو الأمر الذي أثار حفيظة حمزة النشواتي، فقد اعترضوا طريقه بينما هو ذاهب إلى عمله، وعندما عرف قصة اللحم، احتدم كرهه بداخله كبركان يوشك أن ينفجر، كان جركس يحرك العربة في منتصف الطريق على بعد متساو عن العمال، وأخذ حمزة يتشدق بأنهم يعيقون حركة المارة، ويعرقلون عبور بقية العربات التي تضطر لسلوك طريق أطول

ألقى جركس نظرة غير مبالية عليه، فهو يوزع اللحم والذي هو وقف لوجه الله تعالى على سكان الحي، والجميع يحترم ذلك، ويعمل على تسهيل إنجازه.

ولكن هياج حمزة لم يتوقف، وأخذ يطلق الشتائم، ولاحظ جركس أن العمال الذين يرافقونه بدؤوا يشعرون بالتوتر وهم يعضون ألسنتهم كيلا يردوا على بذاءة حمزة، لم يكون العمال أصلا يتلقون أجراً يمكنهم من كفاف عيشهم، ولكن وزير الوالي في دمشق، حدد مقدار الأجور والضرائب بما يتناسب مع الظروف الصعبة التي تمر بها البلاد والعباد،

زاد استياء حمزة وهو يتذكر تذمر العمال في المخزن حيث يعمل مع والده، ومطالباتهم بزيادة أجرة عملهم، وقد اتفق مع والده لمقابلة المدينين في هذا اليوم ليطالبوا بديونهم التي ستمكنهم من دفع أجر إضافي للعمال الذين باتوا يهددون باحتلال المخزن وإفراغه مقابل حقوقهم المسلوبة

استدار حمزة حول العربة برعونة وهو يصرخ بهم ليحركوها إلى جانب الطريق بدلاً من وقوفها في منتصفه، وفي اللحظة نفسها كان أحد العمال يحمل

قطعة لحم ملفوفة بقماش ليسلمها إلى اليد الممدودة من أحد الأبواب فاصطدم بحمزة ووقع اللحم المدمى عليه، ملوثاً ثيابه، ومع أن الأمر مجرد حادث عابر، لكن حمزة قرر بأن ما حدث يسيء إلى شرفه ومكانته الاجتماعية، أما المرأة التي كانت تمد يدها لتتناول قطع اللحم قد انكبت على الأرض لتتلقف نعمة الله قبل أن يلمسها الشيطان إذا بقيت على الأرض وقتًا طويلًا كما تقول القصة الشعبية، شعر حمزة بعفونة البؤس وبشاعة الفقر تلامسه بينما تلك المرأة تحرك يديها بسرعة تحت رجليه، قفز ليواجه العامل، وهو شاب ضخم الجثة، مفتول العضلات، لم يكترث حمزة للقوة الصادرة من الجسد المُجدّ، ولكن العامل أسرع يظهر أسفه لما حدث:

- لم يكن أمراً مقصوداً يا آغا... معذرةً

اقترب رفاق العامل منه ووقفوا خلفه ومعهم جركس... فتقهقر حمزة وبصق على الأرض وهو يبتعد...

اختبأ خلف أحد الجدران ووقف مجهزاً سكينه يراقب اقتراب ذلك العامل منه...

عندما صار العامل على مسافة قريبة لف رأسه ووجهه بوشاح يضعه على كتفيه، وعندما صار بمحاذاته عاجله بطعنة في بطنه وفر هارباً...

هوى العامل على الأرض، فأسرع اثنان من رفاقه بحمله بينما أسرع جركس والعامل الرابع باللحاق بحمزة...

ألقوا الجسد المطعون فوق قطع اللحم وأسرعوا به إلى الساحة...

أحد المارة رأى الحادث وأسرع ليخبر الدرك..

استنفر عبدو العربجي عندما رأى عربته مسرعة والدم يقطر منها ويبدو على العمال الغضب..

نادى أحدهم بأن دورية الشرطة قد اقتربت...

استنفر العمال وبقية العربجية في الساحة واعتلى الجميع عرباتهم... وخدهم إحساسهم بالظلم والجور... بعد أن عرفوا ما حدث باختصار من جركس الذي التحق بهم في الساحة دون أن يتمكن من الإمساك بالمعتدي.

أسرع عبدو ليخرج من الساحة وخلفه العربات الأخرى يحركهم الغضب بسرعة أكبر مما تحركم بغالهم.

رأى عبدو دورية الدرك تشكل حاجزاً لتعيق تقدمهم، فنكز بغله ليضاعف سرعته أكثر وهو يشهر شنكله في وجوههم، بالكاد تمكن أحد عناصر الدرك من القفز مبتعداً بينما دهس البقية تحت دواليب العربات، أسرع الدركي الهارب ليطلب الدعم، وأتت ثلاث دوريات على أحصنة لملاحقة الرجال الثائرين، وأصيب كثير من المارة في الطريق بجروح نتيجة المطاردة، ووصل الخبر بسرعة إلى المتصرف، فأصدر فرماناً باعتقال كل العربجية ومن يقاوم امر الاعتقال يجوز قتله، فاتجه مزيد من العربجية للحاق بعبدو ورفاقه، مئتان وخمسون عربة وصلت من جميع أنحاء المدينة، وتجمعوا خارجها في مرج السلطان، بقيت قوات الدرك متحصنة عن بعد، بينما العربات وسائقيها متحفزون للاغارة على أي شخص يقترب...

انقضت أيام عدة، وتكومت البضائع في المخازن، وتوقفت التنقلات بين المدن والنواحي وقد انضم مزيد من العربجية ليلتحقوا بعبدو ورفاقه...

رفض المتصرف أن يستخدم أحصنة الدولة العثمانية وعرباتها للتنقلات أو - لا سمح الله- لجمع القمامة أو نقل العلف، أو روث الحيوانات، فللجيش وللدرك واجبات أهم في حماية سكان مدينة أصيبت بالشلل...

حفر عبدو ورفاقه خنادق حولهم، وأشعلوا داخلها النار ما جعل إغارة رجال الدرك عليهم أمراً مستحيلاً!

فرغت المحال التجارية من البضائع وفرغ السوق من الزبائن، وتوقفت الحركة التجارية تماماً

وعندها قرر الباب العالي إرسال مبعوث لمفاوضة العربجي ورفاقه...

دخل المبعوث العالي إلى القرية التي بناها العربجية فجأة..

كانت عامرة بالأكل والبضائع التي حملها كل واحد منهم عندما التحق برفاقه، كان كل واحدٍ منهم- مثل قائدهم عبد- يُحسن أكثر من حرفة أو صنعة، وقد قاموا بتنظيف القرية المستحدثة ونظموها، والقانون الوحيد: لا تظالموا..

مزيد من العربجية انضموا إليهم كل يوم... وعبدو شيخ العربجية...

في أثناء حربه الباردة مع الظالمين ولدت رغبته ببناء دولته الخاصة في داخله...

وبعد كثير من المفاوضات، تقرر ما يأتي: ألغيت الضرائب التي فرضت على الفقراء، وزادت أجورهم بنسب معتبرة، مع معونات ومكافآت في عيدي الأضحى والفطر، ليسعدوا، وقد أصدر الوالي أمراً بالصفح عنهم وعدم التعرض لأي منهم... وهكذا قرر شيخ العربجية أن يجنح للسلم كما نصحه كرمو...

(باب ومن الحب ما قتل)

عندما أمرت درية خانوم عبدو العربجي أن يقتل القابلة (ناجيّة) والتي صارت تعرف عن أسرار بيت درية أكثر مما يجب، وصارت تشكل تهديداً، وتكثر الوعيد، فقد عبدو هدوءه الذي يضرب به المثل، فقد كان يقتل الرجل ولا يرف له جفن وهو يفعل ذلك، وكان ذلك أمراً يصعب تصوره.

فقد كان عبدو مغرماً بناجيّة منذ اليوم الأول الذي رآها فيه، لم تكن في ذلك الحين قد تخلت عن جديلتيها أو فستانها المزين بالكشاكش بعد والذي منحته إحدى نساء الحارة لعمتها لتلبسها إياه، كان هو عائداً من إحدى العمليات التي لم يرافقهم حسني فيها لمرض أقعده في الفراش، لكن عبدو لا يترك صاحبه يجوع، كان يمتطي بغله، وشنكله معلّق بنطاقه، بلحية لم تحلق منذ وقتٍ طويل، كانت ناجية تقف تحت شجرة النارنج وهي تأكل كل قطعة سكر كفرس شابة.

لمح عبدو الجمال في بنيتها التي تنمو كغصن البان، ونظراتها التي تشي بذكاء كامن، واشتعلت حمى في قلبه لم يجد تفسيراً لها، وأتت على جسده كله، نارٌ حاول أن يطفئها بين ذراعي واحدة من غانيات خان الدكة، لكن الماء الذي انسكب منه ليلتها، زاده احتراقاً، وبات يبحث عن وجه ناجية في كل النساء اللواتي قابلهن في حياته لاحقاً، وعقد العزم أن يطلب يد ناجية للزواج ولكن يد القدر سبقته، واعتقل الدرك والدها وأودعوه السجن إلى أجل غير مسمى.

كانت ناجيّة تلوم عبدو على سجن والدها، وتظنه خسيساً خان صاحبه، وتركه ليلاقي مصيره وحده.

إن لم تحقق لها درية غايتها منها وتزوجها ابنها نوري، فهو السبيل الوحيد الذي سيحقق لناجية حلمها الأوحد بأن تصبح (ناجيّة خانوم) زوجة الابن الكبير لعفيف النشواتي، آغا القمح في الشام، وتصبح كنّة درية خانوم ابنة كامل آغا الجوخدار، صهر والي الشام سابقاً.

فقد بدأت مطامح ناجية تتعاظم، ولن تسمح درية لفتاة كناجية، ذات أصلٍ من عامّة الشعب، أن تصبح كنتها.

كان عبدو يلعن قوات الدرك العثماني لأنها أوقعت بصاحبه، فقد تركوا كبار المجرمين من الآغاوات الذين يستغلون فقر الشعب ليستبدوا به، ويقيدوا حريته، ولاحقوا المسكين حسني، حتى أوقعوا به ومنعوا أهله وأصدقاءه من زيارته.

حين أخبرته درية كي يقتل ناجية، ظن أن الإله استجاب دعاءه بهذه الطريقة، لكثرة ما صلى كي لا تتزوج رجلاً غيره، مع استحالة موافقتها على الزواج منه، بعد كل ما تضمره له من كراهية فقد أخبرته الخانوم بأن ناجية قد شهدت زوراً، فاتهمت ابنته بأنها ليست بكراً، وبأنها ارتكبت فعلاً فاحشاً مع شومان في البرية، أوضحت له درية:

- لقد كذبت، ابنتك طاهرة كالثلج.

طعنته الكلمات في قلبه كوتد، أغمض عينيه ودارت الدنيا به! كان في موقع لا يحسد عليه!

هل يقتل ناجية وينتقم لشرف ابنته؟،

هل يرفض طلب الخانوم ويصفي حساباته مع ناجية بطريقة أخرى؟ فهو يعرف بأنها مثله، لعبة في يد درية وأبو حمزة؟

وإن رفض الأمر، فهو واثق بأن الخانوم ستطلب من أحد آخر أن يقتل القابلة الكاذبة التي تبيع ضميرها بدراهم معدودة وهكذا تموت وتموت معها براءة ابنته، وقلبه الآثم، فحب ناجية دنس من عمل الشيطان.

خرج من منزل درية لا يلوي على شيء، لجأ إلى كرمو، كعادته في الأوقات الحرجة!،

- أنا غاضب من مشكلات هذه الدنيا، كأنها تركت البشر جميعاً وتجمعت فوق رأسي أنا كمقصلة تريد فصله عن هذه الرقبة بأي ثمن، ما عدت أحتمل هذا كله، ولولا أولادي لفررت من هذا كله قبل وقتٍ طويل، لقد تعبت.

- الله سبحانه لا يكلف نفساً إلا وسعها.

- لكن قلبي رقيق وهش أو ربما صيرته الأيام ضعيفاً.

- وهذا دليل على قوة الإيمان وإنما سمي القلب من تقلبّه، إنما مثل القلب كمثل ريشة معلقة بالفلاة في أصل شجرة تقلبها الريح ظهراً لبطن، فقوة الإنسان مرهونة بقلبه، إن كان صالحاً صلحت حياته كلها وإن كان مريضاً، كان الجسد كله مريضاً، إنه أهم ما في جسدك، المهم ألا تهرب من قدرك، لأنه يلحق بك أينما تذهب!

وكان قدره هو الذي ناداه إلى بيت درية لتطلب منه أن يقتل المرأة التي أحبّ، تجهّز للمهمة بمقدار كبير من (معجونة الحشيش) ولتر من الخمر التي لم يقربها منذ وقت طويل، لكنه يحتاج إلى كل ذرة شجاعة وتهور وجنون في جسده ليمسك قلبه بين يديه، ويخنقها حتى تتسلل آخر ذرة من أنفاسها خارج جسدها، وإذ شعر بروحه تتعلّق، تسابق جسده لتذهب إلى (الخرابة) التي تعيش فيها ناجية، تسلل من فوق جدار منزلها وقفز وصار داخل المنزل، عبق به شذاها الذي يميزه من بين ألف رائحة، كان قد ارتدى ثيابه السوداء، استعداداً للحزن القادم إلى حياته، شعر بها تقترب، ذرات التراب تحت قدميها تناديه، تغيظه،لأول مرة في حياته لم يرد رؤيتها، تمنى لو أنه لم يعرفها يوماً، لو أن الله خلقهما في زمانين مختلفين، أو مكانين مختلفين،

لكن قلبه هتف به: كنت لتعشقها حتى لو لم تلتقيا!

وقف في الظلال ينتظر أن يرى وجهها الذي كان كفيلاً بأن ينير عالمه في لحظة ما، في عهد البراءة السابقة، لكنهما الآن باتا يغرقان كلّ في ظلمته، سمع

قفل باب بينها يفتح، ثم رأها تدلف عبره، وهتف قلبه: يا رب أعني، وبعد أن أغلقت الباب بإحكام ودخلت المنزل قفز أمامها كما لو أنه خُلق من الظلام في تلك اللحظة،

- هل حسبتِ بأن ما فعلته سيمر بلا حساب؟ ربما لا توجد عدالة على هذه الأرض الفانية، لكنه أنا! دست شرف ابنتي، وسخرتِ مني وأنا راكع تحت قدمي أبي حمزة! لماذا؟

(حاولت ناجية أن تتراجع إلى الخلف كأنها تبحث عن طريقة للهرب، فأمسك بذراعها يشدها إليه، بينما دمه يغلي في عروقه)

تحسبين درية خانوم ابنة الحسب والنسب ستزوجك بكرها؟ أنت بالنسبة إليها خادمة فحسب، بيدق على رقعة شطرنج تحركه كيف تشاء، ولا مانع لديها أن يموت كي تُحافظ على ملكها! مجرد امرأة رخيصة تبيع ضميرها!

أحاط عنقها بيده ليخنقها، لكن يداً غير مرئية أحاطت بعنقه في اللحظة ذاتها، تعتصر أنفاسه وقلبه وروحه.. أن يقتل نفسه ذاك أسهل بكثير، أن يسير على النار إليها، أو يسبح في نهر من الحمم البركانية حتى يصل إلى صخر قلبها أيسر بكثير، سيقتل نفسه إذاً، وقد استوى لديه الموت والحياة، ترك عنقها المرمري، كمن يترك الجنة،

Telegram:@mbooks90

- لن أقتلك! ولكني سأذيقك بعض ما ذاقته ابنتي!..

مزق ثيابها وثيابه، ثم جلس يسمعها وهي تستغيث الناس لينقذوها منه، كانت تبكي بحرقة وهي ترى رجال الحارة ونساءها يسرعون ليشهدوا الفضيحة، تساقطت دموعها بصمت حزناً على أحلامها التي كانت تدهسها أقدام قوات (الكركون) وهم يسرعون لاعتقال عبدو وجره إلى السجن، لن يقبل نوري آغا الزواج بها بعد فضيحة كهذه...

علقه السجان في السجن من ذراعيه، فتدلى جسده نحو الأرض كالمذبوح،

وبدأ بجلده في حين أن الناس راحوا يتناقلون خبر تعدّيه على منزل ناجية وعليها بشكل خاص، وكلّ منهم يضيف إلى القصة إضافته الخاصة، وظنونه الشخصية، أما أبو حمزة فوجد أن ما فعله عبدو فرصة ذهبية للتخلص منه، وبشكل قانوني أيضاً، فقد حرض المختار أبا أحمد كي يُنشئ معروضاً باسم أهالي الحارة جميعهم، للمطالبة بإعدام عبدو في ساحة النشواتية، بتهمة الاعتداء على امرأة حرة في منزلها، بنية ارتكاب الفاحشة، ورفع المعروض للمتصرف كي يرفعه بدوره إلى الوالي، ليبت أمر الإعدام...

وبالفعل صدر أمر الإعدام بحق عبدو الجلاد (المعروف بالعربجي) عن جناب والي الشام كي يكون عبرة لكل (زرباوي) تسول له نفسه الاعتداء على حرمات الغير...

صُدمت ناجية لسماع فرمان الإعدام يتم إعلانه عبر مئذنة الجامع وأغرقت في البكاء.

لقد دمّر حياتهما معاً، لكن أن تعيش من غيره؟ كيف ستبدو الحياة؟

لم تفكر درية بإنقاذ عبدو من حكم الإعدام لحظة واحدة، رغم امتلاكها القدرة على ذلك، فهو أولاً لم يخلّصها من ناجيّة وأطماعها مع أن الفضيحة التي افتعلها ألبست القابلة ثوب العار وأسكتتها بشكل نهائي، وثانياً عبدو يبقى مجرد عربجي، وموظف سابق لدى زوجها الراحل، مُستخدم من عامّة الشعب، ولن تبذل لأجله نقودها، أو تطلب معروفاً من الوالي وهو صديق لجدها الراحل – لأجل زرباوي سابق، كانت أذكى من أن تتدخل للوساطة في أمر وضيع كهذا، فهو بيدق يُستبدل بسهولة...

عندما سمعت حسنية فرمان إعدام والدها انهارت على أرض المطبخ وانزلق فوقها وعاء العدس الذي كانت تنقّي حباته من الشوائب لتطهوه لاحقاً...

حاولت أم محمود أن تعيدها إلى وعيها بأن تقرب بصلة مُقطعة من أنفها، بعد

لحظات حاولت حسنية أن تبعد أنفها عن الرائحة ودهمتها الذاكرة على الفور فأغرقت في بُكاء حار...

استجمعت شتات نفسها، وكانت مصممة على فعل كل شيء لإنقاذ والدها، لقد فقدت أمها وحُرمت من رؤية أختها الوحيدة، لذلك فهي لن تتخلى عن والدها حتى لو اضطرت للتضحية بحياتها كي تنقذه.

لجأت إلى درية وهي تبكي وتستعطفها، لكن الخانوم بدت غير مكترثة بدموع خادمتها، وصرفتها بكلمات فضفاضة، لم تفهم الصبية معناها، وعندما عاد حبيبها وزوجها حسن إلى البيت لجأت إليه فوراً، من غير أن تكترث لو رأتها الخانوم، وانهارت بكلها بين ذراعيه الحانيتين، طلبت منه أن ينقذ والدها، وأن ينفذ وصية والده بالحفاظ على صديق عمره.

كان حسن – يفكر أصلاً بطريقة مناسبة لإنقاذ عبدو، وهو يستذكر المرات التي أنقذ فيها عبدو حياته، وحال بينه وبين الموت أو الأذى، كان الدين ثقيلاً، وقد حان وقت السداد.

بدت أمه غير مكترثة، سواء عندها أعاش عبدو أو مات، وبات واضحاً أنها ستتركه ليواجه مصيره.

شعر حسن نحو أمه بالحنق الشديد، فقد بدت له ناكرة للجميل، خائنة للمعروف! لقد ساعدها عبدو مراراً لترتكب أفعالاً ما كانت ممكنة لولا شجاعته، وها هي الآن تتخلى عنه بسهولة.

ذهب إلى غرفته وأخرج أثمن ما يملك، مسبحة والده الياقوتية، وكيسًا من ليرات ذهبية وذهب إلى قصر المتصرف، طالباً رؤيته: وبعد أن سلم المتصرف النقود الذهبية صار الرجل متعاوناً جداً، فسهّل له أمر رؤية الوالي، وهناك شرح حسن للوالي أن عبدو قد اتهم ظلماً، ولم يحدث تحقيق جدي بشأن ما حدث، وطلب منه العفو وعرض عليه مقابله المسبحة الياقوتية:

سأله الوالي: ما هذه؟

- مولانا، هذه قطعة نادرة، صُنع منها ثلاث قطع فقط، إحداها ضاعت، والثانية يحملها مولانا الصدر الأعظم، والثالثة هي التي بين يديكم الكريمتين،. أكرمه بعفوك مولانا، فهو بريء مما نُسب إليه، سيق إلى حتفه بلا تحقيق شامل أو محاكمة عادلة، وجنابكم لا تحكمون على الناس ظلماً، فالله جلّ وعلا حرم الظلم على نفسه وجعله بيننا مُحرماً، وجنابكم تعلمون أن ظلم رجلٍ واحدٍ يهز عرش الرحمن، ويهدم عروش عباد الرحمن...

وهكذا حصل حسن على فرمان عفو عن عبدو العربجي.... فحمل الفرمان كأنه يحمل قلبه على كفه وأسرع عائداً إلى الحارة.

قبل إعدامه طلب عبدو الجلّاد، أن يقيم الصلاة لله تعالى مرة أخيرة، أن يحادث ربه مرة أخيرة، قبل أن تنتهي حياته، لم يكن خائفاً من الموت، فهو يعرف الموت جيداً، قابله مراتٍ ومرات، يعرف سكراته، وظلاله، يعرف الطرق التي توصل إليه، يتحسس حضوره في كل لحظة...

تذكر حديثه الأخير مع رفاق عمره قبل أن يتفرّقوا

قال لهم:

- سأترك حياة السلب والنهب، لا أريد أن تودي بي إلى المشنقة فرد عليه النشمي:

- بل حياة الاستقامة التي تنويها هي ما سيودي بك إلى المشنقة.

-

دمعت عينا عبدو وهو يرفع وجهه إلى سماء ربه:

- رباه! عندما كنت ألحق الموت وأطلبه كان يهرب مني، والآن؟ وأنا أتجنبه وأبتعد عن مكامنه، يمسك بخانقي؟ رباه إني عبدك، ماضٍ في حكمك، وعدل

في قضاؤك الذي قضيت، سامحني يارب، لم أكن عبداً صالحاً، لكن قلبي لم يعبد سواك، ولم أظلم أحداً من عبادك، بل كنتُ مظلوماً، رباه، سأموت وأعلم أني وارد إلى جناب رب غفّار، رحيم، كريم، رحمته وسعت كل شيء وأنا شيء ذليل يا رب، فلتسعني رحمتك، رباه كن مع أولادي وأنت غني عن سؤالي، رحمتهم وأنا بينهم، وظني بأنك سترحمهم وأنا تحت التراب، إلهي استعان الملوك بقوتهم وحولهم، وليس لنا إلا حولك وقوتك، فلا تتركنا إنّا مساكين، وقد قلت في كتابك: لا تزر وازرة وزر أخرى، اغفر لي يا رب...

(باب ولادة السلطان)

وإذا صعد عبدو العربة والحارس في إثره وأُغلق بابها خلفهما، صار يعدّ أنفاسه، يتحسس معنى أن تكون حياته أنفاسًا معدوداتٍ، فكلما انقضى أحدها، اقترب من النهاية أكثر،

كما قال الشيخ الأكبر: يكاد طرفا الدائرة يلتقيان، وإذ يلتقيان تتحد بداية حياته بنهايتها، ويضيعان في محيط الدائرة، تستوي لحظة الولادة ولحظة الفناء، وينفتح الباب إلى حياة أخرى،

نزل عبدو من العربة، وأخذ يعدّ الخطوات نحو المشنقة، يحفظ هذه الساحة أنملةً أنملة، قريباً سيعلم حقيقة الحياة التي تعرّض لأقصى المظالم فيها، الأنظار كلها شاخصة إليه، وقد قدم بشرٌ كثيرونَ ليشهدوا إعدامه، عرف بعضهم، وأنكر الكثيرين منهم، جلبوا معهم أطفالهم، كان سيل من البشر مازال يتدفق إلى الساحة حين وصل إليها، حتى شرفات المنازل المطلة على الساحة اكتظت بالنساء، وسطوح المخازن وقف فوقها صبية كثيرون، تجمع الناس من عشر حارات مجاورة أكثر ممن تجمعوا في وداع موكب الحج الأكبر العام الفائت، وأكثر ومن تجمع من خلقٍ لاستقبال الوالي يوم توليه حكم الشام، وسط الساحة كان فارغاً من البشر، مشغولاً بالموت المنتظر، محمياً بحواجز تحيط منصة الإعدام.

شعر عبدو بيد الحارس الذي يدفعه وهي ترتجف، في حين أن الهدوء غمر عبدو مع كل خطوة، الألم الذي سببته جروح الجلدات التي تعرض لها في السجن ينسحب عنه، سيتركهم وراءه درية وأبو حمزة ورجالهما ونسائهما، وظلمهما وجورهما وألاعيبهما ومؤامراتهما، رأى سادة القوم يقفون عالياً، أمام مخزن النشواتية، أبو حمزة وأبو أحمد وأبو سليم وغيرهم، كان القاضي يقف بثياب القضاء كذلك ليشرف على تنفيذ فرمان موته، وشيخ الجامع الكبير يقف هناك

أيضاً، رآه يتدرج نازلاً ليلاقيه عند المنصة، بعباءة ثقيلة تتخلها خيوط ذهبية وعمامة أكبر من رأسه بكثير، وقد ضمخ جسدهُ بالعطور التي تسبب الدوار.

صعد عبدو درجات المنصة وعيناه معلقتان بأرجوحة الموت التي تحركها نسمات ذلك اليوم...

وسمع نبضات قلبه تردد:

«خذني إليك فكل شيءٍ موحش

حتى المسير بلا يديك كئيب

كل الدروب إلى لقائك أُغلقت

يا بؤس قلبٍ لا يراك تجيبُ»

لكنها لم تكن نبضات قلبه وحدها، عبر أحد الأزقة الفارغة رآهم يقتربون أتي كرمو ومشى قربه لطفي وبقية الدارويش وهم يرفعون أيديهم فوق رؤوسهم وأجسادهم تتحرك بتناغم مع مناجاتهم التي تصدر عنهم بصوتٍ واحد يحمل رجاء العالم بأكمله... ورفع عبدو ذراعيه إلى ربه يشاركهم الحضرة..

طوال الدقائق التالية، توقف الجميع عن الحراك وهم يشاهدون الدراويش ويستمعون إليهم، بينما تسمّر السادة في عليائهم، ربما تذكروا للحظة أن الربّ فوقهم، ولن يرضى ظلمهم، تعلقت عيونهم بالسماء، لعلهم ظنوا بأنها ستنفجر فوقهم غاضبة من جورهم، ومن بين كثافة ذلك الهدوء الصاخب، سُمِعَ خبب الخيول وصرير عجلات عربة تقترب كأنها ركبت الرياح لتصل في الوقت المناسب، وصلت عربة فاخرة يقودها جوادان إلى الساحة، وقد أضّر المتصرف أن يرافق حسن يقيناً منه بأن أبا حمزة رجل لا عهد له ولا ميثاق، وقد لا يرضخ لأمر العفو، كما أنه أراد أن يرى بنفسه هذا المجرم الذي اشتريت حياته بذلك المبلغ الباهظ الذي يُمثله ثمن المسبحة الياقوتية النادرة.

سقطت الأغلال التي قيدت يدي عبدو ورجليه وحدها، لكن أحداً لم يتنبه، ورأى المتصرف نفسه بمواجهة رجل حر شامخ فوق رؤوس الجموع كجبل قاسيون، حتى أنه بدا بطريقة ما يقف على منصة تُشرف على سادة الحارة، من المستحيل أن يكون رجل كهذا ممن يعتدون على الحريم الآمنين في بيوتهم، وقد أحاطت النسوة به من كل حدب وصوب، ينتظرن إشارة منه ليصبحن طوع بنانه.

كان يقف في منتصف حارته التي ظلمته مرة بعد مرة، مثالًا للرجولة والعدالة.

لاحظ أبو حمزة تلك المعاني على وجه المتصرف، وارتجفت يداه اللتان تقبضان على عصًا يستند إليها، يهش بها على عماله.

وعندما أعلن حسن فرمان العفو بين الجموع، بكت النساء فرحاً وهلل الرجال وكبّروا... كانوا يحبونه.

مرت اللحظات وعبدو يقف هناك، رجلاً حراً على رؤوش الأشهاد، لا أحد فوقه إلا الله سبحانه وتعالى وقد رفع عينيه إلى السماء وذراعاه مشدودتان للصلاة.

شهد الجميع معجزة، وقد استجاب الله، ورفع الظلم عن عبده أمام أعينهم...

عبده الذي اسمه عبدو، لا يعرف أحدٌ من يكون أبواه، وقد شب سكيراً عربيداً يقامر ويسلب القوافل، بشنكل في يده، يحبه أهل الحارة جميعاً، والحارات المجاورة.

وإذ وقف عبدو هناك، رأى الموت يبتعد عنه ويرحل دون رجعة، شعر بأنه بات خالداً، لن يموت بعد الآن سيبقى حياً في عقول الناس وقلوبهم، تبرق عيون النساء لذكره، ويراه الرجال أكملهم، صنعه الإله على صورته، ولا يعود الفضل في الصورة التي صار إليها إلى أحد، فلا أب ربّاه ولا أم حنت عليه، بل هو وحده.

شعر بأنه هرقل ذاك العصر! أراد أن يأسر الجميع بحبه، بل بالخوف منه، أن

يصبح المنقذ والبطل الذي يرفع الظلم، وينير الظلام... لقد صار جاهزاً ليدوس رؤوس الظالمين، ويصعد فوقها نحو مجده!

(باب حمزة)

لم يخطر على بال حمزة ولو عاش مئة عامٍ أنه سيفقد حياته بسبب امرأة، بل لم يخطر له للحظة واحدة أنه ووالده سيقعان في حب المرأة ذاتها.

فعندما أخبر والده برغبته الزواج من سعاد ابنة بلقيس خانوم النويلاتي، لم يعلم بأنه فتح باباً إلى جهنم سيحرقهما معاً، كانا قد لمحاها عندما أتت إلى خان القمح رفقة والدتها الأرملة، بدت لهما شفافة، ذات نظرات ناعمة وأصابع نحيلة كالخيار المخلل الذي يحبه، إنها أشبه بلؤلؤة في أعماق المحيط، تبحث عمن يجدها ثم يعلقها كالوسام على صدره.

كان أبو حمزة حذراً من النساء طيلة حياته، يتهرب من أي امرأة تحبه حتى جفّ قلبه، وقد تزوج من أم حمزة لأنها لم تعجبه أبداً، بل يكاد لا يحتمل وجودها في حياته، وهذا ما يجعله آمناً منها، ولاسيما أنها لم تسع للفوز بقلبه يوماً، كان نصيبها من الحياة أن تتزوج، وعندما بعث أمه وأخته تبحثان له عن فتاة مناسبة للزواج، كانت هي الوحيدة التي قبلت الزواج به، من غير أن تهتم من يكون، ولا تكترث لأصله وفصله وشكله، أما سعاد؟ فقد كانت الزوجة المثالية لتشاركه ما بقي من حياتهما وقد صار الأغا بعد موت شقيقه، صحيح أن عمر أبي حمزة ضعف عمرها وأكثر ولكنها الأنسب ليبدأ معها عهداً جديداً في حياته، ولكن وعندما أخبره حمزة برغبته الزواج منها كذلك أخذ العداء بينهما ينمو في الخفاء حتى تفجر يوماً بعد أن كشفا أوراقهما، وعلم حمزة أنه و والده يفكران بالزواج من الفتاة نفسها، وكان حمزة هو الذي أحال العداء الخفي إلى حرب معلنة، فهاجم بيت الأرملة بلقيس والتي صارت زوجة العربجي فقتلها خطأً عندما حاولت أن تدافع عن بيتها الذي اقتحمه، في حين فرّت سعاد هاربة لا تلوي على شيء،

عندما علم عبد العربجي بمقتل بلقيس والتي قبل الزواج منها ليحميها من

رجال الحارة الطامعين بمالها، انطلق مسرعاً ليبحث عن قاتلها ويثأر منه، وعندما وقف أمام حمزة تذكر المرات السابقة التي عفا فيها عنه، لو قتله سابقاً لكانت بلقيس الآن على قيد الحياة، وسعاد آمنة في بيتها، وإن لم يقتله الآن فالله يعلم ما الذي سيقترفه تالياً!

دون أن يرف له جفن، قتل القاتل بهدوء، في مخبئه.

(باب الثورة)

قامت الثورة التي قادها عبدو العربجي نهاية العقد الثالث من القرن التاسع عشر عندما أقرّ السلطان جملة من الإصلاحات الحكومية، كان من أبرزها أنه فرض ضريبةً على الأملاك التجارية، وعند وصول أوامر السلطان بفرض الضريبة والتي سُميت ((الصليان)) إلى والي دمشق، أعلن الأخير – كما جرت العادة- فرمان القانون الجديد على النّاس عبر المنادين الخاصين الّذين يدورون بين الحارات، وقع الفرمان صادماً على السكان عامة وعلى الحرفيين خاصة، وكان من بينهم الحدّادون والنجارون الذين يتعامل عبدو وسائر العربجية معهم، لصيانة عرباتهم، وتبديل القطع التالفة وإصلاح الأجزاء المعطوبة، فشجع عبدو الحرفيين في حارته خاصة والحارات المحيطة على إعلان رفضهم للقرار بضرب المنادين الخاصين بالوالي، الّذين فروا عائدين إلى قصر الوالي، يشكون ما حدث لهم (**للكتخدا**) وهو أمين سر الوالي، والذي تحسس بدايات عصيان في حارات الشام.

تجمع عبدو وبقية العربجية لمساندة الحرفيين، وتجمعوا في مكان واحد لإثبات موقفهم الرافض، وأعلنوا إضراباً مفتوحاً.

اجتمعت القوات التابعة لحكومة السلطان، وقرر الكتخدا إرسال جنود مسلحيّن لمواجهة الناس العزّل المتجمهرين في الحي.

واستعان بجنودٍ مأجورين من خارج الشام لفرض نفوذهم فيها وفضّ العصيان المدني ووقع صدامٌ بين السّكان الرافضين للقرار والجنود القامعين لهم، مات على إثره عدد من الرجال على يد الجنود.

وهذا ما دفع أهالي الحي إلى الانتفاض في وجه القوات الحكومية، وأخذوا يبحثون عن مصدر يمدّهم بالسلاح، فلجأ عبدو إلى صديق عُمره النشمي وطلب منه أن يمده والسكان بأكبر عدد من الأسلحة، وعندما تجهزوا، ورصّوا صفوفهم،

قاد حسن آغا النشواتي مجموعة مسلحة من أفراد العائلة، وقاد عبدو مجموعة مسلحة ثانية مكونة من أصدقائه وزملاء المهنة والحرفيين وهاجموا منازل الجنود المأجورين، فقتلوا معظمهم ونهبوا بيوتهم.

راع هذا الأمر الوالي، وأصدر أمراً بإيقاف جباية (الصليان) لتهدئة المحتجّين.

شعر السكان بأن ضعف موقف الوالي هو موطن قوتهم، فطمحوا إلى أن يصير إيقاف القانون صادراً عن السلطان نفسه، فتلغى الضريبة بشكل دائم، لا مؤقت فحسب، وعرفوا حينئذٍ بأنهم الأقوى، فاستمروا بملاحقة الجنود، وتعاهدوا أمرهم وعقدوا عزمهم ليخرجوهم من المدينة حتى آخر جندي.

وعندما وصلت أخبار استمرار الهجوم إلى والي الشام، أسرع لإخراج الجنود من المدينة، أملاً بأن ينتهي الصدام، ويهدأ الغضب الشعبي.

وأرسل جماعة من المصلحين إلى قادة الهجوم الشعبي، وهم حسن وعبدو ومجموعة من آغوات الحارات والشيوخ الصوفية، ليبلغوهم قرار سحب الجنود، واعتبر الرجال هذا القرار إذعاناً من الحكومة للإرادة الشعبية فهدأت الحال في المدينة.

عندما وصل الخبر إلى الباب العالي، بأن الوالي قد أصدر أمراً بإيقاف جباية الضريبة المسماة بـ الصليان لتهدئة السكان، قام بعزل الوالي من فوره، متهماً إياه بالتراخي والانهزام، وعّين والياً جديداً على دمشق،

وصلت أخبار التعيين إلى المدينة قبل وصول الوالي الجديد، الذي سبقته سمعته بوصفه شخصًا مستبدًا وعنيفًا، قمعيًا ومحبًا للسيطرة، يعاقب بالصرامة ذاتها من يسرق دجاجة ومن يرتكب جريمة قتل!

وهذا ما دفع حسن النشواتي وعبدو العربجي إلى دعوة آغوات المدينة وأعيانها من التجار والعلماء والأشراف وشيوخ الصوفية وأصحاب الحرف إلى اجتماع خارج المدينة، وشجعًا عامّة الشعب على الحضور حتى يكسبا تأييد

القاعدة الشعبية التي كانت سبب نجاحهم الأول في إيقاف تطبيق قرار الضريبة الجديدة، حضر عدد كبير من البشر ذلك الاجتماع، حتى أن بعض الأعيان رافقتهم زوجاتهن، وتولى عبدو أمر نقل الجميع إلى الاجتماع، الذي عارضه أبو حمزة و درية خانوم كذلك بشكل ضمني غير معلن، وبقيا في الحارة.

اتفق عبدو مع النشمي ورجاله كي يحيطوا بمقر الاجتماع ويحرسوه خوفاً من ضربة غدر تؤذي أحداً منهم.

تدفق عدد كبير من السكان إلى مقر عقد الاجتماع لحضوره، وكان لحضورهم أكبر أثر في القرار الذي خرجوا به لاحقاً، وقف حسن ورحّب بالجميع وأكّد على أهمية اجتماعهم، وقال أحدهم:

- نخشى أن يكون اجتماعنا هذا خروجاً على أمر السلطان وموجباً لحربه علينا.

فانتفض عبدو واقفاً وردّ:

- بل هو عكس ذلك تماماً، فلو جارينا السلطان

- دام عرشه- في تنفيذ هذا القرار لظلمنا أنفسنا وهذا أبشع الظلم، ولرضينا بظلمه وشجعناه عليه وهذا جُرم كبيرا فواجب المحكومين إعانة الحاكم ونصحه ليكون حكمه عادلاً، لكننا بيّنا موقفنا من الضريبة، ومازال الباب العالي مُصرًا على إنفاذها

أسند عبدو شنكله إلى الطاولة التي عقد الاجتماع حولها وأمسك القرآن الكريم بيده والسيف الدمشقي بيده الثانية ورفعهما عالياً:

- إن لم يحكم بالعدل فسوف يكون السيف هو الفارق بيننا وبينه، وما الحياة إلا وقفة عزّ ورفض للذل والضيم، والوقوف في وجه الحاكم الظالم أنبل الأعمال ومن يقف في وجه الظلم هو أكرم البشر، فما قولكم؟

وقفت الجموع وقفة رجل واحد، ورفعوا يمناهم وهتفوا بصوتٍ واحد: نقسم بالله العظيم أن نكون رأياً واحداً وحالاً واحدة ونقول كلمة واحدة

وأقسموا على ألا ينفذ قرار ضريبة الصليان ولو ذهبوا عن آخرهم، ثم شدّ بعضهم أزر بعض وانصرفوا على هذا الرأي.

عندما وصل الوالي الجديد، رتب أمر عقد اجتماع مستعجل فأرسل دوريات مُدججة لإحضار وجهاء المدينة، وأخبرهم بأن من يرفض الحضور سيعتبر عاصياً، ويُعامل وفقاً لذلك، فارتأى الآغاوات حضور الاجتماع كي لا يكونوا البادئين بخلاف يرجو الجميع اجتنابه، وفي قاعة الاجتماع جلس الوالي على رأس المجلس، وأوقف قرب كل واحدٍ من أعيان المدينة جلاداً بسيف في إشارة ضمنية، بحيث بدا واضحاً أن من يجرؤ على معارضته سيكون القتل الفوري عقابه، وقال باختصار:

((ما قولكم، ستمررون الضريبة؟))

تلفّت الرجال حولهم، نظروا إلى جلاديهم، وقد أمسك كلٌ منهم بسيفه بانتظار رد أعيان المدينة وكان جوابهم بارد، فاتفقوا معه على تمرير الضريبة خوفاً على حياتهم، وحقناً لدمائهم.

وعندما خرجوا من مجلس الوالي، أسرعوا لعقد اجتماع سري خاص بهم وجددوا العهد على أن يبقى اتفاقهم الشعبي سارياً...

عندما بدأ موظفو الولاية بتسجيل الدكاكين محميين بجنود مأجورين لتلافي ما حدث في المرة الماضية، بدا واضحاً أن الشارع يحتقن ضد الوالي الجديد، وإصراره على معارضة إرادة الشعب، استمر موظفو الوالي بتسجيل الدكاكين في الأحياء والحارات، بينما كان عبدو وبمساعدة حسن، يعقد اتفاقات سرية مع قوات الإنكشارية المحلية، وينشط مع قوات النشمي ورجاله لتسليح الجميع، وقد بدا واضحاً أن الوالي الجديد يضرب بيدٍ من حديد، ولا يواجه الحديد، إلا

حديد مثله.

أنجز الموظفون تسجيل الدكاكين في اثنين من أكبر أحياء المدينة، وعند وصولهم إلى الحي حيث يعيش عبدو العربجي وأصدقاؤه وحلفاؤه اصطدموا معهم مباشرة، بدا واضحاً أن السكان وأعيان الحي قد نظموا صفوفهم جيداً، وسوف يحافظون على اتفاقهم مهما لزم الأمر، لاحقوا العساكر المأجورين المرافقين لموظفي الوالي، وقتلوا منهم من قتلوا، بينما احتمى بقية العساكر بالجامع والخان في الحي، خوفاً من النيران التي جهلوا مصادرها، وكانت تتساقط عليهم من جميع الجهات، لكن استطاع أحد العساكر الفرار من قبضة السكان، ووصل إلى مقر الوالي مغسلاً بدمائه، فأخبره ما كان وما لم يكن، ولم يبيتها الوالي لحظة واحدة، فأمر قوة من خاصته كي تؤازر العساكر المحاصرين في الجامع والخان فوراً

كان عبدو يتوقع سلوك الوالي، فقد كان يشابه سلوك أبا حمزة، لا يردعه عن ظلمه أي شيء، ذا سلوك انتقامي، فانطلق مع ثلة من رفاقه ليواجه قوات الوالي قبل وصولها إلى حيهم، وهناك اجتمع مع قوات من (يرلية) الحي والأهالي لمواجهة العساكر، وتأمين الطريق لأهالي الأحياء المحيطة كي يلتحقوا معهم لخوض المعارك، فكانت القوات الشعبية تتكاثر أكثر وأكثر مع كل ضربة ظلم يوجهها الوالي.

هزم الأهالي قوات الوالي وأعادوهم إلى مواقعهم قرب السرايا وحاصروهم هناك، وبينما كانت المعارك محتدمة نظم عبدو جميع العربات في قوافل وغزا مخازن القمح المزمع إرسالها إلى الأستانة لتكون مؤونات للجيش، وحمّلها فوق العربات وقاموا بنقلها إلى مخازنه وأبلغ حرّاس تلك المخازن أبا حمزة ودرية بما حدث، فعقدا اجتماعاً طارئاً في المنزل، وصلت إليه درية متنكرو ومقنّعة يرافقها ابنها وكان أبو حمزة بانتظارها:

- لقد سرق الرزق كله،

- هذا الذي كنتِ تحتمين به وتحسبينه واحداً من رجالك؟ تأتمنيه على مالك وعرضك؟

- أنت من أوصلته إلى ما وصل، لم تترك لوناً للظلم إلا أذقته منه حتى صار مثل الوحش الكاسر، وها قد أتى ليفترسنا!

- سيبقى زرباوياً فحسب، مهما اجتمع حوله من البشر

- من بين هؤلاء البشر ابني حسن وأهالي الحارة وأعيانها

فكر أبو حمزة قليلاً ثم قال:

- لن أخضع لإرادة مجرم عربيد.

تنكّر أبو حمزة ومعه نوري وتسللا خارج الحي، ذهب إلى قصر المتصرف وعرض أبو حمزة عليه خطته، أثنى المتصرف على خطة أبي حمزة، واتجهوا معاً لعرضها على الوالي الذي أعجبه مقدار البطش والخسة التي حوتها كلمات النشواتي، فأرسل مباشرةً فرماناً إلى أعيان الحي وساداتهم بتهدئة الأمور فأرسل مرساله إلى موظفي الحكومة وقادة القوات شبه العسكرية ممن يسكنون الحي، أمرهم بوقف القتال حتى يستطيعوا الوصول إلى اتفاق ما، ورفع المتاريس، وإزالة الحواجز، وفي الخفاء كان جنود الوالي قد فتحوا ثغرة بين السرايا وأحد الحارات، فتسللوا منها إلى زقاق العدس وسيطروا عليه وارتكبوا الفظائع بسكانه، فقتلوا من قتلوا، ونكلوا بالبقية، فسلبوهم أموالهم ويتموا أطفالهم،

Telegram:@mbooks90

وصلت أخبار ضربة الغدر إلى عبدو وجماعته، وطلب أهل الزقاق المنكوبون العون من أهالي الأحياء الأخرى.

جمع أعيان الأحياء قواتهم المسلحة، وهبوا لنجدة الحي المنكوب، وجرت معركة كبيرة بينهم وبين الجنود المأجورين الذين تراجعوا من جديد إلى السرايا، حاملين معهم ما سلبوه وما نهبوه، فسدّ الأهالي الثغرة، وأجمعوا أمرهم

على حصار السرايا الحكومي، كي لا يتعرضوا لضربة غدر جديدة من الجنود المتمركزين فيه، فحملوا المواد القابلة للاشتعال والمشاعل وأحرقوا السرايا، ففر المحاصرون نحو قلعة دمشق، كان الوالي قد سبق جنوده بالهرب نحو القلعة وقد تركهم ليلاقوا مصيرهم، وأمر قواته المتمركزة في القلعة بقصف المدينة في المدافع المثبتة على سور المدينة، فحرق من الأسواق القريبة من القلعة ما حرق.

سيطر أبناء دمشق على مدينتهم بشكل كامل وجمعوا قواتهم وحاصروا القلعة لأكثر من أسبوعين، قاد آغوات الإنكشارية المعركة وقد كانوا خبراء بأسلحة الوالي المتمركزة في القلعة وخططه، ووضع عبدو ورفاقه طاقاتهم تحت تصرّف الآغاوات، حيث كان يمد الأهالي بالقمح والمؤن، في حين قطع طرق الإمدادات عن القلعة، حاول أبناء المدينة اقتحام القلعة عدة مرات، فصنعوا لغماً وألصقوه بجدار القلعة، خلف انفجار اللغم حفرة لم تكن كافية لاقتحام القلعة، لكنها زرعت الخوف والرعب في قلوب المحاصرين الذين بدؤوا يعانون الجوع وقد انتهت المؤن الموجودة في القلعة.

اضطر الوالي بعدها للتفاوض مع آغاوات البلد، فأعطوه وحاشيته الأمان، وقاموا بنقله إلى قصر العظم حيث أمضى عدة مع موظفيه وأعيانه.

وصلت أخبار بغضب السلطان العثماني على الآغاوات في المدينة، فأجمع الأخيرون رأيهم على إلقاء اللوم فيما حدث على أهالي الحي، وإخلاء مسؤوليتهم، وعندها شعر عبدو وحسن بأن أعيان المدينة سيخلون بينهم وبين السلطان ليواجهوه وحدهم.

ففرض السلطان عليهم أن يرافقوا الوالي وجنوده خارج المدينة حتى مكان حيادي ويخلوا سبيله في بادرة سلام.

فرافقه عبدو ورفاقه في موكب نحو الشمال، على طريق القوافل، وهناك قتلوه مع كل جنوده وموظفيه وأفراد عائلته، وبطشوا به بالطريقة نفسها التي

بطش بها خلال فترة توليه.

بينما أرسل أعيان المدينة رسولاً وحملوه معروضاً حاولوا فيه الحصول على السماح من الباب العالي وشرح الوضع للسلطان، فكتبوا في رسالتهم:

«أفندم سلطان، عندما دخل الوزير إلى الشام خضعنا له الخضوع التام وكتبنا له الصليان برضى جميع الحارات، إلا أن أحد الحارات سكانها من الفلاحين والحرفيين ضعاف النفوس، ومن حيوانيتهم شونو ساعتين زمان، فوصل الخبر إلى الوزير فأرسل حالاً العساكر إلى البلد، فقتلوا ونهبوا وسبوا الحريم وأحرقوا البيوت، وأرسل أمراً إلى القلعة كي يضربوا الطوب على البلد، يبغي خرابها، فقام أهل البلد وأعيانه لحمايته والدفاع عن عرضهم ودمهم، فدخلوا السرايا وأحرقوها، فذهب الوزير إلى القلعة ورمى الأسواق على كل دائر القلعة بالنار، فحرق أسواقاً وبيوتاً وجوامع معظمها يخص الحرمين الشريفين وسوّاها بالأرض، ولم يفتر عن ضرب المدينة ليلاً أو نهاراً، وشلّ حركة الحياة فيها، أفندم الشكوى إلى الله ولكم فنحن عبيدكم ورعاياكم نرجو مراحمكم، بإرسال سائس من عند جنابكم لأجل أن يحكم فينا، حَكم المولى على العبيد»

فقلب أعيان المدينة الحقائق على هواهم، وحاولوا توجيه اللوم كله على أهالي زقاق العدس.

غضب السلطان غضباً شديداً، لكن اقتراب موسم الحج وخوفه من أن يتوقف دفعه إلى الصفح عن أعيان البلد، وإرسال متسلّم للمدينة، ذي شخصية ضعيفة، أقرّ أعيان مجلس المدينة ليحكموها كيف شاؤوا، وانصرف إلى العبادة.

رفض عبدو وأصدقاؤه وحلفاؤه الخضوع إلى سلطة أعيان المدينة بعدما أخلوا بهم وقرروا إقامة دولة خاصة بهم.

(باب الندم)

عندما وصلت أخبار أكيدة إلى الخان، بأن عبدو العربجي قد استولى على مخازن القمح جميعها، حتى تلك التي اشتراها نوري خلسة وخزنها في منزل كبير خارج المدينة، وبسبب علاقاته مع صغار القوم، من عمال مياومين وحرّاس للحقول، أرسل عبدو رسله إلى جميع القرى والبلدات المحيطة بالمدينة لينسق معها أمر شراء القمح بأعلى الأسعار، تناقل الفقراء الخبر لينتشر كالنار في الهشيم، حيث وعد العربجي الجميع بأن يدفع لهم مقابل الرزق ذهباً، كان أبو حمزة يفكر بأبواب الجحيم التي فتحت في وجهه فهو حتماً سيخسر اتفاقه مع الدولة العلية ليمدهم بالقمح، وبقية الحبوب، كما أن علاقاته ستتدهور حتماً مع تدهور أوضاعه الاقتصادية سيخسر كل شيء عمل لأجله طيلة العقود الماضية، وقف في منتصف الخان ونظر حوله، كم كان وحيداً، طلّق زوجته، وأرسل رجاله ليحرسوا الحارة خوفاً من هجمات عبدو وعصابته فتح باب الخان وكان الغبار الذي تثيره حوافر الخيل يملأ المكان بينما سيطرت الفوضى على الحارة كلها، تراءى له خيال عفيف، يدير له ظهره ويحني رأسه، قضى عمره كله في كراهية أخيه، والآن؟ دمر كل ما بناه، اقترب من الخيال فابتعد عنه، وكلما اقترب، كان يزيد خيال أخيه بُعداً عنه، ويرفض النظر إليه، بالطبع كانت روح أخيه غاضبة في مثواه الأخير، وبات يحسد أخاه على موته! حتى بعد أن مات فقد بقي الناس يذكرون محاسنه، طاب حياً وميتاً، أما هو فقد بات يسمع الشتائم واللعنات تُكال له من أفواه الناس أثناء مروره بهم، عليه وعلى درية وذريتهما!، عليه أن يعقد اجتماعاً مع درية، مشى إلى قصرها، ودخله، بدا خالياً، وقد وقفت وحدها إذ اقترب منها أكثر، رأى نوري يقف في ظلها،

- لقد سلبنا العربجي كل شيء!

– ماذا تقصد؟

- ما أقصده؟ أننا قد بقينا وحدنا! دون (آغاوية) القمح، أو الحبوب، كل شيء ضاع!

– بل أضعته يا شريف! أحلت العربجي إلى وحش كاسر! ألست من حرض امرأته على الهرب؟ ألم تخطف ابنته وتهتك عرضه وتلوث شرفه؟ ولم تقف عند هذا الحد! لم تقف عند أي حد! اتهمته بالسرقة وقمت بجلده أمام الناس كلهم! أوصلته إلى المشنقة! جعلته وحشاً لا يلوي على شيء! والآن سيفترسنا جميعاً، فكيف ستقاومه؟

- كأن اللوم يقع علي وحدي! كلانا سواء! ربما أحلته وحشاً، أما أنت؟! فعاملته كما تعاملين جميع البشر، كأنهم نوع حقير من الكائنات! الجميع أدنى منزلة منكِ! حتى أولادك وأولادهما لا أحد جيد بما يكفي لتنظري إليه على أنه إنسان مثلك! جميعنا وسائل لتحققي غاياتك!

– ربما! لكن على الأقل كانت الأمور تحت سيطرتي، أبقي العاملين لدي مقيدين برسنٍ طويل حتى يتوهموا بأنهم أحرار، وأخنقهم حين يغالون في أوهامهم، استملك قلوبهم بحاجتهم إلي، أما أنت فالسوط دائماً في يدك! تجلد الناس على الدوام بلسانك ويدك! وها هو عبدو خرج من الحارة آخذاً كل شيء معه! ولن استغرب عندما سنصحو صباحاً فنجد الجميع قد لحقوا به وتركونا نعاني وحدنا!

- لسنا وحدنا بل نتحد من جديد! نحن اللذين نعرف كل نقاط ضعفه ونملك قتله بها! ولو كان آخر شيء نقوم به في حياتنا

وعندها ألقي كيس من فوق حاجز سطح القصر، استقر على الأرض مصدراً جلبة عظيمة وتسيل منه الدماء! اقترب أبو حمزة وفتح الكيس ببطء، ووجد ابنه بداخله، مستكيناً لأول مرة في حياته، ويبدو عليه الهدوء هدوء المقتولين! لم يذرف الأب دمعة واحدة! كان عاجزاً عن رثاء ابنه الوحيد! ثم شعر بالغضب والحنق فقد صار مثل عبدو بالضبط! بلا وريث

(باب اللطف)

أخبرك أمراً! هناك أشخاص عندما تقابلهم تعرف فوراً بأنهم مفاتيح للخير، مغاليق للشر، وهذا ما حدث عندما رأيت لطفي أول مرة، لقد صبرتُ، وأتى لطفي ليكون مفتاح الفرج، كما كان أبوه من قبله، روحي التقت روحه البريئة، قبل أن ألتقي جسده، كان كوالده شعره أشعث، ليس لهما ما يدهنانه به، ولا وقت لديهما ليهتما بمظهريهما وقد شغلهما الاهتمام بجوهريهما،

شكى لطفي لي: ليس لوالدي وليس لي جاه، أستأذن الناس ولا يأذنون لي، بل يدفعونني.

(وأخذ يرفع الغبار عن ثيابه البسيطة، وعيناه تدمعان)

ليس لي قيمة عندهم.. يسخرون من طريقة كلامي

- مالك وللناس؟ عليك برب الناس!

«رب أشعث أغبر مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره»

- ونعم بالله العلي العظيم..

بأي شيء أحصّل هذا يا شيخ كرمو؟

- بتقوى الله..... أكرم الناس عند الله أتقاهم..... من يسلم الناس من لسانه ويده! من يبقى على حُسن ظنه بالله مهما ساءه الناس وحالهم.

أمسك يدي واقترينا من الدارويش، تجمعوا في حلقة وأخذوا يتحركون بتناغم، كأنهم يسمعون معاً لحناً وما هو باللحن، كأنهم يلبون نداءً لا صوت له

- ما الذي يفعلونه يا شيخي؟

- هذه تسمى الحضرة! وهي ذكر الله بصوتٍ عالٍ، بنداء موحّد، ويتحرك الجسد مع النداء، كأنه يحاكي رقصة الروح داخله، تخبطها، وتوقها للتقرب من الذات

الإلهية.

انضممت إلى الحلقة وضممته إلى جواري، أخذنا نهتف وندور حول مركز الحلقة الذي لم يكن مركزاً مادياً.. كان شيئاً أبعد عن ذلك شعور وحّد بيننا.

«يا سروري ومنيتي وعمادي

وأنيسي وعدتي ومُرادي

حبّك الآن بغيتي ونعيمي

وجلاء لعين قلبي الصادي

ليس لي عنك –ماحييتُ- براحُ

أنت منّي ممكّنٌ في السوادِ»

(باب الوصية)

قبل وقتٍ طويل...

خرج أبو كرمو صباحاً، فتح باب منزل، وعلق كيساً ممتلئاً بالخبز الجاف حول رقبته، طعام للطيور، وللبشر الّذين أفئدتهم كأفئدة الطيور، وجد عبدو مستلقياً في العراء، زجاجة الخمر فارغةً قربه، واللعاب يسيل إلى طرف فمه، مشى أبو كرمو قربه، متجهاً نحو الكنز الذي يحرسهُ على الدوام، تحسس عبدو حركته، ونفض عنه إغماءة السُكر بسهولة كمن اعتاد شرب الخمر بدلاً من الماء، انتفض واقفاً وحمل الزجاجة ونظر إليها كأنه يلتقيها أول مرة، ثم رماها بعيداً واقترب أبو كرمو الذي عاجله:

- أبدل أم وتد؟ أحسبك وتداً!

اتسعت عينا عبدو من المفاجأة وهمس:

- أي بدل وأي وتد؟ لقد كنت في الحانة الليلة الماضية، قصدتها بعد أن طُردتُ من الخان! الخمر أكثر حناناً من قلوب النسوة في الخان.

- أعلم أنك ترتكب الخطايا.. هذا لا يُبعدك عن رحمة الله، فكلّنا خطّاؤون، لكن لك علاقة مع الخالق، على صلة دائمة به، لا أحد يستطيع الحكم على طبيعة هذه العلاقة وخصوصيتها، لا أحد يستطيع تفسيرها أو قبولها أو رفضها سواه جل وعلا، علاقة الإنسان بربه كبصمة يده، يستحيل أن تتشابه بين إنسان وإنسان!

نظر عبدو إلى السماء وقلبه يقول: ((يارب))

ضرب أبو كرمو بيده على صدر عبدو، وقال:

- جوهر الأعمال هي النية، ولا أحد يستطيع أن يحكم على نية أحد، النيات يعلمها الله وحده، فلا تدع أحكام البشر على ظاهر أفعالك يحدّد لك من تكون! أنت وحدك يعلمُ من تكون

- لقد قضيت طفولتي في الخانات والحانات، لوقتٍ طويل لم أعرف بوجود حياةٍ ثانية، ثم قابلت عبد الكريم، وبعده قابلتك.. كان الأمر كأنه ولادة ثانية

- كل يوم هو ولادة جديدة، وكل نومٍ موتٌ صغير.

نظر أبو كرمو باتجاه منزله وهمس:

- لا تترك عبد الكريم، هو والدراويش وصيتي إليك..

- أعدك...

- كلما ضعفت تعال إليهم، سترجع أقوى، كلما خفت، تصدّق عليهم، ستجد أمانك، كلما شعرت بالضياع جدهم، سيجتمع شتاتك.

(باب المخمصة)

راقب عبدو اجتماع الدراويش من بعيد:

- أحسب أن أعدادهم في ازدياد

اقترب كرمو منه، يستند إلى عصاه وقال:

- كثر الفقر يا صاحبي، وعندما يكثر الفقر يجد البشر أنفسهم على مفترق طرق، فيسلكان أحد السبيلين، فإما أن يتجهوا إلى المفاسد والفجور، وإما أن يتبعوا سبيل الزهد، والمفارقة أن الطريقين يختلطان في نقطة ما، فمن سلك طريق الفجور يعبر إلى طريق النور ومن سلك طريق الزهد قد يودي به إلى الكمد ثم البُعد.

(باب الكنز)

كان عبدو والنشمي وكرمو وكل من تبعهم من عربجيين وحرفيين وحتى آغاوات يعرفون أن سلطان الدولة العلية، ربما غض الطرف عنهم بعد ثورتهم إلى حين، لكنه لابُد منتقم..... ولن يطول أجل الانتقام أكثر من وقت انقضاء موسم الحج، ولما اجتمع الأصدقاء الثلاثة معاً لإنهاء الأمور المعلّقة، فقال النشمي لعبدو:

- ألن تسمع صوت العقل؟

نظر عبدو عميقاً في وجه صديقه ومُنقذه وموضع ثقته:

- عقلي يحدّثني بما لم يحدثك به عقلك يا صاحبي! السلطان لن يتركنا! إنه يحكم أطراف الأرض، ولن نستطيع الهرب!

- ما الحل إذاً؟

- هذه السلطنة بُنيت على أكتاف قبائل ثارت ضد الظلم، ونحن تحت حكم سلطان ظالم، لن نكف عن حربه! ولكننا لن نبقى هكذا نتصيد الثغرات ونغير عليهم منها ونقتلهم

– ماذا سنفعل إذاً؟

- نقاتله نداً لند، سلطان لسلطان (ويشير عبدو إلى نفسه)

كرمو:

- صاحب الحق سلطان

- ونحن أصحاب حق في دولة الظلم والجور هذه!

يهمس النشمي، وقد تعود أن يكون خارجاً عن القوانين:

- نقيم سلطنتك؟ دولة داخل دولته؟ تسن القوانين وتضع الدساتير وتحكم

الناس؟

يقف عبدو وينظر باتجاه الكنز، ويرى ابنه لطفي يقف قربه:

– البشر خائفون، لكنهم يملكون حلماً يتفقون على تحقيقه، أن يعيشوا في دولة بعيداً عمن ظلمهم وهم فقط بحاجة إلى رجل مثلي يعلم يقيناً أن الخوف مجرد وهم تملّك وعيهم! لقد ضُربت وعُذبت وثُكّل بي وبعائلتي، لم أخف يوماً من ظالمي! أتريان؟ الخوف مثل الحلم لو رأيت في الحلم أنك تنزف، هل تنزف حقيقة حين تصحو؟

ردا معاً: لا!

- ومثله الخوف، حين تقرر مواجهته تجده داخل عقلك فقط، أما خارج العقل؟ فهو غير موجود!، نمتلك المؤن، ونستطيع امتلاك الماء، ولدينا على بعد أمتارٍ منا، الكثير من الذهب، ما الذي ينقصنا لنبني أقوى الدول؟

تبادل كرمو والنشمي النظرات..

اقترب عبدو من الكنز ولحق كرمو به:

- لكن الكنز مرصود، لا نعلم كم شيطاناً يحميه،

- لقد قارعنا شياطين الإنس، ولن يخيفني شياطين الجان.

تبادل عبدو وابنه النظرات وأكمل:

- إن لم نخرج الكنز، سيستخرجه رجال الوالي عندما يأتون للبحث عنك، لأنك أحد الذين شاركوا في الحراك الشعبي ضد قرار السلطان! ومن ثم السلطان نفسه!

فكر كرمو بكلمات عبدو قليلاً ثم اقتربا من لطفي فأسند كل واحدٍ منهما يداً إلى كتف الشاب الصغير، نظر إليهما واقتربوا جميعهم من الحفرة المغلقة انحنى لطفي وأخذ يسحب السلسلة المتصلة بقفل الصندوق الذي يحوي الكنز، وإذ

أثقل عليه سحبه، أخذ عبدو وكرمو يساعدانه ويدفعون أجسادهم إلى الوراء، انهارت جوانب الحفرة حيث الكنز وأخذت الأعشاب المحيطة تتساقط داخلها، كان الثلاثة يبذلون أقصى جهودهم لسحب الكنز المخبوء وقفز النشمي لمعونتهم ثم اندفعوا على الأرض بعد أن رأوا طرف الصندوق وأخذوا يسحبون بقوة أكبر، واندفعوا إلى الخلف، فوقعوا أرضاً وأصبحوا بمواجهة أكبر صندوق يرونه، بدا من حقبة مختلفة وقد غطى معدنه الصدأ، اقتربوا منه ومد لطفي يده إلى القفل فانفتح وحده وسقط على الأرض، رفع عبدو الغطاء وكاد بريق الذهب يعمي عينيه! مئات آلاف الليرات الذهبية كانت تبادلهم النظرات!

مد عبدو يداً مرتجفة وقبض على أحد الليرات وهمس:

- العصر الذهبي لدولة الطنبرجية يبدأ الآن!

ثالثاً - دولة في العراء

(باب دولة عشقة)

- أجمع عبدو ومجلس مستشاريه أمرهم على أن عشقة هي المكان المثالي لبناء دولتهم، وركب عبدو عربته مخلفاً لطفي خلفه، وقد أصرّ أن يبقى قرب قبر (أبي كرمو) ليحرسه، وأكمل بصوتٍ مرتجف

– رجال الوالي لن يكترثوا بي... لا أحد يكترث بي لدرجة أن يقتلني، الناس ينظرون إلي كحيوان أليف.

وأصرّ لطفي على موقفه، فاصطف خلفهُ جماعة من الدراويش والتفوا حوله وحالوا بين الأب وابنه، فغادره عبدو وقد اختلطت عليه المشاعر.

وإذا اقترب من عشقة، شعر بأن حياته تكتسب أهمية مع مرور اللحظات.

ترك خلفه تلك الليلة التي قضاها حزيناً ومكسوراً ومجروحاً بعد أن سلبوه ابنته ظلماً، ثم وضعها في قبرها الصغير لاحقاً، وتلك الظهيرة التي قضاها مشبوحاً على عمود في منتصف ساحة النشواتية، يتلقى الضربات ويُنعت بالسارق، وتلك الليالي التي قضاها وحده في زنزانته في السجن ينتظر تنفيذ حكم الإعدام بحقّه،

انضم إليه النشمي ورجاله فوراً، وأعلنوا ولاءهم له وبايعوه ليكون قائدهم، ووضعوا حصنهم تحت تصرفه، واتفقوا أن يبقى الحصن سراً، ليكون ملجأ في حالات الضرورة، ورصد مبلغاً كبيراً لزيادة مناعته، ومدّه بالأسلحة والمؤن وبناء أبراج مراقبة وحفر الأنفاق تحته!

وعيّن عبدو صديقه النشمي، ليكون قائد الجيش في الدولة الجديدة، فيبني مساكن جديدة، للجنود ويزودهم بأقوى الأسلحة النارية والبيضاء، وأوكل إليه أمر بناء دار لتصنيع المنجنيق، لحماية عشقة ريثما تصل المدافع الحديثة، أخذت أسر الجنود تنضم إليهم، والعربجية يردون إلى الدولة الجديدة من كل

حدب وصوب، رفقة عرباتهم، وفوض عبدو إلى أمين سره جركس أمر بناء مصنع للعجلات والعربات والنواعير، وأقام النواعير على جميع روافد نهر بردى وتفرعاته ليحول مجرى الماء إلى القرية، فشح وصول الماء إلى دمشق شيئاً فشيئاً، كانت أخبار الدولة الجديدة تنتشر بسرعة في الأصقاع.

وأخذت نساء الخان تتوافدن إلى القرية واحدة تلو الأخرى، تذكرن عبدو بالأيام القديمة وتطلبن مساعدته فقد ضاقت حال الناس في المدينة، وصار العمل قليلاً، فسمح لهن ببناء خان وحانة خارج القرية، وجعل البغاء أمراً قانونياً، مع معارضة كرمو الذي قال له:

- أمرٌ كهذا سيجلب لعنات الله وغضبه علينا!،

ورد عبدو: بل الظلم يجلب اللعنات، وشهادة الزور ورمي المحصنات واستعباد الناس وسلبهم حريتهم، وخون الأمانة، واستغلال حاجات العباد.

وكان الأمر الذي تنبأ به عبدو، حيث أخذ الوالي يرسل جنوداً مأجورين، بشكل سري ليصفي كل شخص شارك بالثورة ضد قرار السلطان والضريبة الجديدة، فأخذ الحرفييون يلجؤون إلى عشقة، فأكرمهم عبدو وأحسن مثواهم وسمح لهم ببناء حوانيتهم لممارسة مصالحهم فيها وجلب لهم أفضل الأدوات التي تعينهم على ممارسة مهنهم بالشكل الأمثل،

كما لجأ إلى عشقة أعيان الحارات ممن شارك بالثورة ضد ضريبة الوالي، فدخلوها وهم يحملون معهم أموالهم وصكوك أملاكهم، وأخذت القرية تتسع حتى سيطرت على ضفتي النهر وعلى تل قريب خطط عبدو لبناء مقره فوقه.

وبعد فرار أغلب من شاركوا في الثورة ولجوئهم إلى عشقة أخذ رجال الوالي يلاحقون كل من كانت له صلة بعبدو ورفاقه، وفي إحدى الليالي اقتحم ملثمون منزل ناجية وقلبوه رأساً على عقب، وعندها علمت بأنها صارت غير آمنة في الحارة، فحملت ما خف وزنه وغلى ثمنه من أشيائها القليلة واتجهت نحو عشقة.

وصلت أنباء قدوم (ناجية) إلى عشقة قبل وصولها هي، فشعر عبدو أن أركان دولته ستكتمل قريباً، إذ ليس هناك سلطنة بلا سلطانة ولو وجد السلطان، وليس هناك دولة بلا امرأة تسوسها ولو حكمها تسعة رجال، شعر بحاجة ملحّة إليها، وقد صار مُحاطاً بالرجال طوال الوقت حضر عبدو لاستقبال (ناجية)، فدخلت عشقة كخانوم، وخصص لها داراً تطل على النهر، فيصلها الماء عذباً طوال الوقت، نمت الأشجار والنباتات والمحاصيل بوفرة في الدولة الجديدة، وقد خصص عبدو الكثير من المال ليحول القرية البسيطة إلى جنة على الأرض،

فقال له كرمو:

- هذا البذخ سينقلب وبالاً علينا، لو أراد الله أن تكون الجنة على الأرض لخلقها على الأرض، لكنه بناها عنده، للخيرة من عباده،

- تلك جنة بناها إله السماء في السماء، لكن عشقة ستكون جنة الأرض التي أبنيها أنا، رب هذه الأرض.

تتسع عينا كرمو خوفاً:

– الرب واحد ياصاحبي، لا تتجبر

فكر عبدو قليلاً ثم قال: الرب يعطي جنته من يطيعه، أما أنا؟ أريد هذه الجنة، التي بنيتها بيدي هاتين، جنتي! عصيت الجميع، وثرت في وجه استعبادهم لي، وقاومت تحكّمهم بقدري، لأدخل هذه الجنة! تقول بأن الله عز وجل غني، وكل شيء على الأرض لن يزيد في ملكه شيئاً، إذاً أريد منه جنتي هذه لأكون ربها، وكفاني!

في تلك الليلة هرب كرمو من عشقة لا يلوي على شيء، خاف أن تسقط السماء فوق رؤوسهم، تحديداً فوق رأس صديق عمره، الذي يبدو بأن السلطة أصابته بالجنون.

أرسل عبدو رسله ليجمعوا له من البلاد المحيطة الأحجار الكريمة والمزيد من الذهب ليزين أسوار مقره الجديد، باتت عشقة مزدهرة بالقصور التي تجري تحتها سواقي الماء العذب، الذي تُرمى فيه حبات الفاكهة فتصل إلى سكان القصور باردة ونظيفة قبل أن يطلبوها حتى، وبنى بحيرة من عسل يتم حمله يومياً إلى عشقة من رؤوس الجبال، وبنى نافورة يتدفق منها الخمر ليل نهار، استقدم لبنائها مهندساً خاصاً من إسبانيا، ورصد داراً خاصةً بتقطير العطور، ونشر العطر في شوارع عشقة، فينتشر أريج الياسمين والورد الدمشقي في شوارع القرية ليل نهار.

وفي واحدة من ليالي منتصف الشهر وحيث البدر مكتمل وقد انعكست صورته على صفحة الماء في البحيرة الكبيرة التي توسطت قصر السلطان عبدو الجلّاد.. وقف على الشرفة المطلة على دولته ورفع ذراعيه نحو السماء وأخذ يدور في مكانه.. حول محرابه الخاص.. تلك الليلة انضمت إليه ناجية، ترفل بثياب حريرية بيضاء، شعرها مجدول بسلاسل ذهبية، ويحيط رأسها تاج من الزبرجد، ويحيط خصرها نطاق مرصع بالياقوت، وأخذت تدور حول نفسها قربه، وقد صارا زوجين!

استمر عبدو باحتكار سوق القمح والحبوب، وبسبب كثرة العربات في دولته الجديدة كان نقل المحاصيل سهلاً ويسيراً، فكثر الخير، وصارت الحبوب تنشر فوق أسطحة المنازل لتأكل الطيور منها وفي الغابات المحيطة لتكثر فيها الأعشاب وتتكاثر الغزلان والأرانب وقطعان الماشية لكن ذلك كله كان على حساب المدينة القريبة، دمشق، والتي كان سكانها يرزحون تحت ثقل الجوع والعطش

فبعد أن وصلت أخبار الدولة الجديدة إلى السلطان، أصدر فرماناً بقتل كل من يخرج من مناطق حكمه ليلجأ إلى عشقة، وأرسل حملة عسكرية قوامها جنود مأجورون للإغارة على الدولة الناشئة.

وكان عبدو ورئيس جيشه النشمي لهم بالمرصاد، فقصفوا الحملة عن بعد باستعمال المنجنيق والمدافع، وانبثق الجنود من الخنادق الأرضية كأنهم جان، فقتلوا جنود الحملة كلهم! وسيطروا على عتادهم وكل ما يحملونه، ثم وضعوا الجثث فوق العربات المحصنة والمتينة التي تتم صناعتها في دار العربات الضخم في عشقة، ورموا الجثث على مشارف دمشق، خوفاً من أن تتكرر مأساة الطاعون الذي أتى على سكان عشقة في السابق، وكانت تلك رسالة شديدة اللهجة للوالي والسلطان نفسه، رسالة تشي بقوة الدولة الجديدة وجبروتها.

فيوقن السلطان بأنه لا فائدة من استعمال القوة للوصول إلى هذه الدولة وسبر مكنوناتها، فيأمر الصدر الأعظم أن يشرف بنفسه على تجهيز حملة من آغاوات دمشق وعلى رأسهم الوالي لمفاوضة عبدو، كي يرخي قبضته عن القمح والماء، لتنتهي المجاعة، وتلك كانت الأسباب الظاهرة لتلك الحملة.

خطط عبدو كي تطوف الحملة في عشقة كلها، كي يعلم المفاوضون مدى قوة مضيفهم ومدى غناه، ثم استقبلهم في قصر الضيافة الذي تشرف حسنية ابنته وزوجها حسن على إدارته، كان رجال الحملة وآغاواتها وعلى رأسهم الوالي يسخرون من عبدو مع كل شيء صار إليه، ومع كل قوته ونجاحه، فقد كانوا يعتقدون بأن ما أتى من عدم سيصير إلى عدم، وهكذا فكل ذلك البذخ آيل للزوال، فخاطبوه بتعالٍ، كما كانوا يخاطبونه عندما كان عربجياً زرباوياً في الحارة، فغضب بشدة وقص رأس واحداً من جنودهم في إشارة إلى نهاية جلسة المفاوضات المنعقدة، بل وفشل الحملة في التوصل إلى اتفاق بما يخص الماء والطعام، وتخرج الحملة من عشقة شبه مطرودة، وعندما تصل أخبار فشل المفاوضات إلى السلطان يقرر أنه يجب تدمير عشقة فوراً، وإلغاء وجودها غير الشرعي في دولته!

لكن حملة المفاوضات لم تفشل فشلاً كليًا، فقد نجحت في إدخال عناصر من قواتها إلى المدينة، ودسهم في مقر السلطان، تجهيزاً لاغتياله بدس السم

في طعامه، لكن العربجي لم يمت، فمعدته التي اعتادت أكل البرغل والعدس والخبز القاسي لم تتقبل الطعام الدسم بأي شكل، كان يأكل اللحم المحمر بالسمن والغارق في مرق البندورة والمحاط بالخضراوات الطازجة اللامعة ثم يتقيؤها فوراً، كما يتقيأ البقلاوة التي تُقدّم بعد العشاء، كان عاجزاً عن الاستمتاع بطعامه، لكن عجزه ذاك أنقذ حياته فسبب له السم المرض فترة من الزمن ولكن لم يمت!

عجز الجهاز الأمني في دولة العربجي عن تحديد هوية الشخص الذي دبر محاولة الاغتيال، فصار عبدو يشك بجميع من حوله ما عدا ناجية! صار يشك بالنشمي وجركس، حتى طالت الشكوك صهره وابنته، وشيئاً فشيئاً أخرج الجميع من قصره وعاش فيه وحيداً، وأوكل لناجية أمر التعامل مع الناس خشية على حياته،

فصارت ناجية تخصص الكم الأكبر من أموال الدولة لشراء المجوهرات والحرير لنفسها، كما باتت تشتري العقارات والبساتين وتسجل ملكيتها لنفسها لا لدولتها، وإذا توافد المزيد من البشر إلى الدولة، ضاربين بعرض الحائط قرار السلطان بمنعهم من اللجوء إلى عشقة، فالجوع كافر!

وتكاثرت أعداد السكان في حين أن الحكومة تتداعى، بدأت الفوضى في الدولة الجديدة، وانتشر السلاح بين الناس، وعلى رأسهم... رأس الدولة... حيث كان العربجي عاجزاً عن الحركة من غير أن يكون مدججاً بالأسلحة! شنكل وسيف وطبنجة، وعندما يقابل أحد رعاياه يجرده من أسلحته كلها خوفاً على حياته!

وفي الليل يبكي في حضن ناجية خوفاً عليها مما قد يحدث لها لو أصابه مكروه، حتى أغرق زهوها بدموعه!

ضاقت ناجية ذرعاً بدموع زوجها! كانت تكره بكاء النساء، أما بكاء الرجال فتحقّرهُ! ترى فيه أحقر أشكال الضعف وأبشع أنواع الكذب.

فأرسلت ناجية خانوم ابنة المرحوم حسني رسولاً إلى الشيخ عبد الكريم الذي صار شيخ الطريقة الجديد، ويعيش في منزل بناه له السلطان عبدو، بدلًا من الخرابة التي كان يسكنها، وتحيط به أكواخ يلجأ إليها الدراويش إذا ضاقت بهم سبل الحياة، وتزوّد بالماء والطعام والدفء والثياب بشكل دائم! وقد خصص عبدو وقفاً لذلك.

أرسلت ناجية إلى الشيخ تخبره عن حال صاحبه، والذي ما عاد يناسب حاكم الجنة! وصار يناسب رجلاً ضعيفاً، يعيش في التكايا ويتلطّى في الزوايا!

لبى الشيخ كرمو نداء السلطانة ناجية خانوم بشكل فوري، فمع كل ما حدث، كان الجميع وفياً لحاكم الدولة، الذي بالرغم من صراعاته الداخلية وتفلت زمام الحكم من يده، كان مستمراً في سياسة البذخ! وكان قانونه الأشد ألا يجوع أحد يعيش في حدود دولته!

وعندما وصل الشيخ كرمو إلى قصر السلطان عبدو، منعه قائد الحرس من الدخول! فوقف تحت شرفات قصر السلطان، ظناً بأن من منعه من رؤية صاحبه هو صاحبه نفسه! وفي ذالك أقصى درجات نكران الجميل!

وأخذ يناجي ربه وقد ضاقت به أرضه:

(اقتلوني يا ثقاتي، إن في قتلي حياتي!

(أنا عندي محو ذاتي، من أجلّ المكرمات)

(إنني شيخ كبير / في علو الدارجات)

(ساكناً في لحد قبر/ في أراضٍ سبخات)

سمع عبدو نداءات صديق عمره، كصوت يصل إليه من حياة سابقة نسي كل شيء عنها، عدا ذاك الصوت الرخيم:

«يناجي ربه في الخلوت...

حاضر غائب... قريب بعيد...

هو لم تحوه رسوم الصفات»

فخرج لأول مرة من القصر، حاملاً شنكله فقط وهب لمعانقة صديق العمر، والبكاء بين ذراعيه!

- ما الذي فعلته؟ قتلت نفسك، وعذّبت روحك، بنيت للناس جنّة، وقبعت وحدك في الجحيم! لا تظنن أن الناس سيأتون إلى حاكم مستبد حباً به! إنهم يأتون وقد قتلهم الجوع وأبكى أطفالهم، وشرّد نساءهم! كأنك كرهت الظلم لكنك لم تعرف سواه!

ترك عبدو صاحبه يتكلم وسرح بنظره بعيداً نحو أنهار الخمر التي أسالها، وسواقي العسل التي أجراها، والقصور التي بناها، وسار مبتعداً عن الشيخ كرمو... ربما صارا يتحدثان بلغتين مختلفتين، ولا سبيل لفهم أحدهما الآخر بعد اليوم!

استند كرمو إلى عصى والده بيديه... وشعر أنه فقد جزءاً من قلبه!

بعد أن خرج عبدو من قصره بسلاح خفيف ولم يصبه سوء، شعر بأنه استعاد شيئاً من شعوره بالقوة والأمان، وأخذ يسير في جنته رفقة دورية من الحرس، شعر بالخواء، وأراد مزيدًا ومزيدًا من القصور الأخرى! وأنهاراً من لبن، ومزيدًا من الحوريات!

وإذ خرج الناس في الشام إلى الشوارع يبحثون عن كسرة خبز وشربة ماء، وقد بلغ الفقر والجوع منهم مبالغه، فلم يجد الآباء ما يسكتون به أفواه أطفالهم، ولم تجد الأمهات ما يسترن به عورات حاجتهن وعوزهن، أجمع الناس أمرهم وخرجوا إلى الشوارع، يهتفون ضد الوالي ومن فوقه السلطان، ويطالبون أن يحكمهم عبدو العربجي، لأنه صار المتحكم بطرق التجارة، ودولته صارت منارة

للدول، فلا يجوع فيها بشر وترتع فيها الدواب آمنة، وتسيل فيها أنهار العسل!

وهكذا توقفت الحياة في الشام تماماً، وافترش الناس الشوارع، وأعلنوا العصيان!

تزامناً مع ثورة الجوع في دمشق كان عبدو قد أرسل رسوله إلى الوالي ليخبره بأنه قد يطلق سراح ثلث كمية القمح المتفق عليها، مقابل نصف المبلغ الذي يجمعه المتصرف من أموال الضرائب، وعندما وصل الرسول وأخبر الوالي رسالته، جنّ جنون الوالي، وأرسل فرقة إلى السلطان، يخبره مدى تطاول العربجي، وقد صار طموحه غير محدود! وربما يتطور به الأمر فيغزو ولاية الشام بأكملها فتخسرها السلطنة العثمانية للأبد!

ولأن الوالي جرّب الحل القمعي مع العربجي سابقاً وباء بالفشل الذريع، قرر أن يسلك هذه المرة سبيل الخديعة والدهاء، فرد رسالة عبدو بقوله: أحبط ثورة الحيوانات الذين يظنون أنفسهم بشراً، واكسر عصيانهم، وأعدهم إلى بيوتهم، ولك ما طلبت.

قرأ الرسول رسالة الوالي على سمع عبدو مراتٍ ومرات، وفي كل مرة كانت نشوة عبدو تتجدد! إذاً أخيراً قررت السلطنة العثمانية أن تعترف بوجوده، وأن تطلب معونته لحكم الشام! وقد صار إذاً سلطاناً مثل سلطانها الذي جاب القارات الثلاث كلها ونشر اسمه فيها، وقرر العربجي أنه سيحكم الشام كلها، وبعدها سيحكم العالم بأكمله! يكتشف قاراته المجهولة، ويشق أنهاراً من خمر في الأصقاع كلها!

نظّم عبدو والنشمي الحملة العسكرية للقضاء على ثورة الفقر في الشام... تلك الثورة التي كان أحد أعمدتها في يوم قبل سنوات، سيقمعونها اليوم! كذلك تدور عجلة الأيام، فيصبح الأعلى أسفل في غمضة عين!

انطلق عبدو صبيحة يوم الخميس بجيش جرار، ترافقه آلاف العربات، ومعه

المدافع والمنجينقات للإغارة على الشام وكسر الحصار الذي فرضه الآغوات، كي يمنعوا عبدو ورجاله من دخول الشام بعد أن خرجوا منها، وعندما وصل إلى مشارف المدينة وجد شيخاً كبيراً خارج الباب الكبير، يجول الأرض بحثاً عن شيء يأكله، أوقف عبدو حركة الجيش بأكمله بإشارة من يده، كي لا يصيب الشيخ الكبير أي أذى...

رنا الشيخ إلى عبدو بعينيه وقال:

- الشائعات صحيحة إذاً، أتيت لتدمر المدينة التي عشت فيها جائعاً ومتعباً ويائساً! أتيت لترفس المدينة التي رفستك بقوة! ربما لا تختلف عن السلطان الظالم بشيء! كلاكما تفعلان كل شيء كي تبقى نار الحرب مشتعلة! تهدمان المدن بالمدافع وتشردان البشر!

تريد أن تقتل أهلك؟ لتقتلهم إذاً! ليس غريباً عليك، فقد سرقت القوافل واغتصبت النساء وبعت روحك للشيطان مراتٍ ومرات، وها أنت هنا الآن! تنفي روحك إلى الجحيم الأبدي بدلًا من أن تحاول استعادتها!

وأخذ الشيخ يسير مبتعداً، يكمل بحثه عمّا يسد به رمقه، تاركاً عبدو يرتجف وهو يسمع صوت الرعد يقصف بعيداً، منذراً باقتراب عاصفة وشيكة، مع أنهم في منتصف الصيف...

وكذلك كانت دولة العربجي في أيام الدهر... سحابة صيف عابرة...

استدار عبدو نحو جنوده وصرخ بهم:

- سنكمل الطريق إلى السرايا، لنحاصر والي الشام!

سرت الفوضى في صفوف الجيش، حتى غيروا اتجاه المسير وانطلقوا مسرعين نحو وجهتهم الجديدة!

كان الوالي قد هرب من قصره ولجأ إلى قلعة دمشق، فلحق عبدو وجيشه

به وضربوا حصارهم حول القلعة، بينما أرسل الوالي رسلاً له، ليطلب إمدادات عسكرية ولوجستية من الولايات القريبة للقضاء على العربجي، حيث حذر الولاة الآخرين بأنه إن سقط، فسوف يسقطون بعده تباعاً، فالعربجي لا حدود لطموحه.

انطلقت جيوش جرارة في جميع الولايات القريبة، من بيروت وعكا والناصرة! آلاف مؤلفة من الجنود ومثلها من الأحصنة، مئات المدافع أتت لتقضي على العربجي وتمحو دولته من الوجود.

لم يقاوم عبدو وجيشه طويلاً، لكنهم لم يستسلموا قط...

سقطت عشقة أيضاً! دمرت الجيوش قصورها وقتلوا حورياتها، ومحوا آثار أنهارها، لم يبق ما يدل على وجودها، ولا حبة زمرد واحدة!

سيقت ناجية إلى السجن، يسترها ثوبٌ رقيق، وقد أصابها الجنون داخل سجنها، وهي تطلب من جميع السجينات أن ينادوها: ناجية خانوم! سيدة الزنزانة!

ووضعت طفلها ذكراً بعد شهور عدة من اعتقالها، فسلبها السلطان إياه، وجلبه إلى قصره ليعيش في كنفه! وأطلق عليه اسم شريف!

أما عبدو فقد أصيب في المعركة، وأصبح جسده مثخناً بالجراح ينظر إلى السماء ويبتسم، لا يحس بأي ألم يرى عربته تقترب منه من بعيد!

اشتاق كثيراً إلى الجلوس عليها!

امرأة كانت تقودها، ترتدي ثوباً أحمر كالدم، تقترب منه، تسنده ويسيران ببطء نحو العربة...

يرنو إليها بنظرة ويبتسم: لم أتوقف عن البحث عنك لحظة واحدة، علمت دائماً أنك ستعودين إلي!

ساعدته فوزية ليستلقي فوق العربة، وقادت العربة متجهة نحو شمس

Telegram:@mbooks90